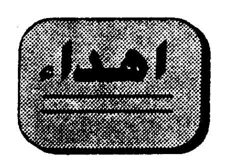
قضايا حبيسة في الفلسفة الحديثة

تأليف
الدكتور/ محمد حسيني موسى الغزالي

الطبعة الثانيـــة

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

الميل في الكتاب من الداخل



إلى : ....

من وقف معى عند المحن

وأبعد عنى أفانين الإحن

الأستاذ الدكتور

محمود حمدى زقزوق

عميد كلية أصول الدين سابقاً ووزير الأوقاف الحالى

وفاءً بعهد ....

وقضاءً لدين ....

تقديراً وعرفاناً ....

دكتور

محمد الغزالي

مقدمة

الحمد لله منح المكلفين عقولا وأمرهم باعمالها ، والصلاة والسلام على من زكى العقول ونهى عن اهمالها ، وارض اللهم عن الصحابة والتابعين الذين صانوا عقولهم وما أوحى لها ، وأرحم العلماء الذين كانوا أنجم هدى ، بشروا بالجنة فعملوا لها .

أما بعد ..

فان الفكر الانسانى حلقات متواصلة ، ومراحل متكاملة ، اذا اختفت أنواره فى موقع فقد علت فى آخر ، ومتى ضيق عليها فى مكان وسع فى صدور آخرين ، ذلك لأن الفكر حركة دائمة لاتنقطع ، انه كالتنفس للعلوم والمعارف ، فاذا انقطع الفكر مات العلم ودفنت المعارف .

وتاريخ الفكر شاهد على أنه ما من فرد موجود عاقل الا وهو مفكر على نحو من الأنحاء ، ليستوى فى تلك الناحية الحفاة العراة ساكنو الفيافى والقفار ، وساكنو القصور الفاخرة ، والأبراج الشاهقة ، وأن اختلفت مستويات التفكير وأنماطه ، وموضوعاته ومناهجه ، طبقا للمتناولين له ، والأسباب التى يعالجونها ، والقضايا التى يريدون النظر فيها أو إعادة الطرح لها من جديد .

بيد أن الفكر لايعرف أماكن الاقامة ، ولا يتقيد بالجنسيات ، وان تأثرت معالجاته ببعض نصوص النقل عند قوم أو أثرت فيه عند آخرين ، والفلسفة الحديثة من هذا النوع الذى وقع بين القبول والرد ، كما حاصرته عوامل التأثر والتأثير ، بجانب الموضوعات المستجدة والتى ابتعدت بعض الشيء عن مناطق النفوذ الفلسفى قديما ، لتحل محلها فلسفة تجريبية ، وأخرى مثالية ، أو نقدية ، أو غيرها من الفلسفات .

كما أن الفلسفة الحديثة ليست وليدة بيئة بعينها حتى تنسب اليها مكانيا ، وان كان المشهور أنها وليد أوربى متعدد الأعمام والأخوال ، أو تعددت أثوابه ، وكثرت روافده ، مع اتحاد المنابع مما يدفع الدارس لاعادة النظر فيها من جديد ، حتى يتعرف على المنابع التى روت منها ، والروافد التى تفرعت اليها ، بعيدا عن المشهور الذى لايجد أدلة يستند اليها ، أو شواهد قوية يقف عليها .

مع أن الفلسفة الحديثة ربما شغلت عصورا ، وامتدت دهورا وحملتها الينا أنواع مختلفة وجنسيات متعددة ، وبخاصة فى مرحلتها الأولى التى كان الغرض منها التعرف على ما قبل ظهور الفلسفة

الحديثة الى ساحة الفكر ، وهو ما يعرف بالعصور الوسطى فى أوربا ثم ظروف النهضة والأسس التى شادت أسسها عليها ، والسمة التى تميز الفلسفة الحديثة عن غيرها من أنواع الفلسفات الأخرى كاليونانية والمصرية ، والصينية ممن عرفت لها اقامات محددة ونسبت اليها .

كما أنه من الضرورى التعرف على موقعها من الفلسفات التى لها سمة الوصف فى المنهج وطرق المعالجة ، وعرض الموضوعات كالفلسفة الاسلامية مع الوضع فى الاعتبار الوجود الفعلى للفلسفة المعاصرة ، وأنواعها ، والفروق الجوهرية بينها ، والمدارس التى تنتمى اليها ، وجوانب التأثر والتأثير ، والعلاقات المتبادلة بينها .

على أن هذه المسائل ربما استعصى الوصول اليها فى وقت واحد أو عز بلوغ غاية فيها على نحو استشعر فيه الرضا عن ما قمت به ، من ثم فلا مناص من الولوج اليها ، ومحاولة فض أغلاقها ، فان بلغت الغاية المنشودة فنعما هى ، وان وقفت الغايات فحسبى شرف المحاولة ، ونيل الهدف ، والله الهادى الى أقوم سبيل .

دكتور

(محمد الغزالى)

الفصل الاول

إطلالة على الفكر الأوربي

في

العصر الوسيط

(١)

عاشت أوربا فترة من الزمان فى شبه حلم غطى جنباتها ، وضرب بأجنحته على كل أرجائها ، ابان عصرها الأول ، الذى كانت تجرى فيه الأمور هادئة حينا وعنيفة أخر ، وكان نظام الأسر السائد فيهما يغطى الظواهر الاجتماعية بغطاء لايخفى ما تحته ، ولايدفع عنه حرارة الشمس أو برودة الجو .

مضى على ذلك وقت يسير برز فيه دور رجال الدين اليهودى وغيرهم ممن اصطنعوا لأنفسهم واتباعهم أديانا مختلفة فيها التغنى بالبطولات والحديث عن الأمجاد ، والدفع بالأفكار الساذجة الى ميدان التطبيق العملى ، فكانت النتائج مذهلة ، لأنها لم تحقق أدنى درجات النجاح المنشودة من الخطة الموضوعة . وكانت الكنيسة هى أقوى سيد . (١)

مضى العصر الأول من عمر أوربا والمجتمع الأوربى قد بلغ به الأمر مداه ، نظام اجتماعى متهالك ، ودينى متداع ، وعناصر غير طبيعية تسللت الى حياة الناس فلم يعد لهم من أسرارهم ما يعرف قيد التحفظ أو طريق الكتمان ، فى ذات الوقت ظهرت عناصر ضغط متمثلة فى سلطان الكنيسة وسلطان السياسة ، وصار الأوربى يقع بين قطبى الرحى ، فهو

(١) الفرد أنشتين — الموسيقى فى العصر الرومنتيكى ص ٢٣

اما مدين على طريق الكنيسة ، أو مدين على لغة السياسة .

امتد هذا الزحف بشكل لافت للنظر حتى جعل المهتمين بالفكر الانساني يرقبون هذه الظاهرة التى أمتدت قرونا متطاولة ،فلما اتضح لهم أسباب هذه الظاهرة ، والنتائج التى ترتبت عليها ،وبان الجهل والتخلف الاجتماعى ،وتسلط السذج من رجال الكنيسة على ضمائر الناس هرعوا الى تعريف هذه الفترة الزمنية بما يتفق معها ،فعرفت هذه الفترة باسم " العصور الوسطى " .

اذن العصور الوسطى هى الفترة التى وقعت بين الفكر النظرى الثابت والتجريبى المنطلق كما عرف باسم عهد المشعوذيين والمنيستريل الادباتية (١) .

(٢)

بيد أن العصور الوسطى فى أوربا امتدت قرابة ثمانية قرون ابتداء من القرن الثالث الميلادى حتى مطالع القرن الثالث عشره عندما تسلل بصيص النور الذى أنشأته الحضارة الاسلامية — الى أوربا المظلمة ،وراح ذلك النور الاسلامى يسرى فى الأوصال فيعيد اليها الحياة بعد غيابها الطويل

ومن المعروف الداعى للدهشة أو " ما هو أشد مدعاة للدهشة أن الحضارة العربية الاسلامية كانت حتى القرنين — الثانى عشر والثالث عشر أكثر العلوم تقدما فى العالم ، اذ فاقت انجازاتها كلا من الغرب

(١) الفرد أينشتين — الموسيقى فى العصر الرومانتيكى ص ٢٣ — ترجمة د / احمد حمدى محمود — الهيئة المصرية العامة ١٣٩٤هـ ١٩٧٣م

والصين في البصريات ، والفلك ، والرياضيات ، والهندسة ، وحساب المثلثات ، والطب ... ولقد علمنا أن علماء العالم الاسلامي وضعوا مؤلفات في العلوم التجريبية ، كالبصريات والطب والفلك ، وأنهم أطلقوا التقنيات على مجالات نوعية من البحث وبخاصة البصريات(١) ، ومع ذلك " فاننا نأمل الا يفوتنا التنويه بأى انجاز هام للمسلمين في هذا الميدان ، اذ لايكاد يوجد شيء من جهود المسلمين في ميدان العلوم لم يتأثر به الغرب بطريق أو بآخر" (٢) .

(٣)

وظل هذا العصر الوسيط يلقى بظلاله الكثيفة على كافة مناحي الحياة الفكرية في أوربا ، مرة تحت سلطان الكنيسة الروحي الذي ألهى الناس بشطحات لاقيمة لها ، وأصدر بينهما حكاما لاحجية لها ، منها أن الدين والعلم عدوان لايلتقيان ، والغلبة يجب أن تكون لدين الكنيسة لالسلطان العلم .

---

(١)توبى أ. هاف ـ فجر العلم الحديث ص ١٧١ جـ ٢ ترجمة الدكتور أحمد محمود صبحى سلسلة عالم المعرفة العدد ٢٢ . ابريل ١٩٩٧

(٢) شاخت وبوزورث ـ تراث الاسلام جـ ٢ ص ٢١٢ ترجمة د / حسين مؤنس سلسلة عالم المعرفة ط ٢ ١٩٨٨م مايو ١٩٨٨م .

" وكثيرا ما صرح الدين اليهودى والمسيحى — على لسان رؤسائه انه الدين — عدوا لعقل نتائجه ومقدماته ... حتى صار الأشولة فى علم الكلام عندهم — الدهاش بالمعجزات ، أو الهاء بالخيالات ، يعلم ذلك من له العام بأحوال الأمم قبل البعثة الاسلامية (١) " ، وكان حال أوربا كلها نفس الحال (٢) ، فيما يتعلق بالناحية الروحية الدينية .

ومرة تحت سلطان الملك الذى لايمكن الخروج عليه ، أو التعرض له ، بل ولا رفع راية العصيان فى وجهه ، انه ظل الله فى الأرض ، والحاكم عنه بأمره ، والخليفة الذى لايعصى له أمر ، ولو كان مخالفا لطبائع الأشياء ، وضد السلوكيات الشخصية .

لم يتخلف هذا السلوك النشاز مع رجال العلم أو الفلسفة ، بل كان الطابع واحدا ، والحكم العام لايمكن وضع استثناءات فيه ، حتى

---

(١) الامام محمد عبده / رسالة التوحيد ص ٦ تعليقات الشيخ رشيد رضا ط ١٧ — دار المنار ١٣٨٦ هـ .

(٢) ولد رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى ٥٧٠م وبعث ٦١٠ م نهايات القرن السادس ومطالع السابع الميلادى مولده — المبارك وبعثته الشريفة صلى الله عليه وسلم . حيث ولد صلى الله عليه وسلم — الأثنين الثانى عشر من ربيع الأول ٢٠ اغسطس ٥٧٠م / د . محمود محمد زيادة — العرب وظهور الاسلام ص ١٤١ جـ ١١ دبى — الطباعه المحمدية ١٩٧٢ .

باتت الديانة صورة من التفكير الساذج ، والعقيدة بيد رجال الدين ومصالحهم لا بعقولهم ونصوص الدين الذى يحتكمون اليه ، أو يقودون الناس بسلطانه .

من ثم . انقلبت الحياة عليهم ، فلا خير يرتجى منهم ، كما لا توجد حسنة واحدة يمكن نسبتها اليهم ، وطالما عمت الشرور ، وهتكت حرمة الدين ، نكست راية العلم ، وبات الناس فى حيرات ثلاث لا مفر منها ولا امكانية للخروج عنها .

(١) حيرة الكفر .

(٢) حيرة الجهل .

(٣) حيرة الكبت والحرمان (١)

وأى شعب يقع تحت هذه لابد أن يعرف المرض الطريق اليه ، سواء كان المرض بدنيا كالأمراض التى نعرفها وتصيب الانسان فى جسده ، أو روحيا مما يصيب الانسان فى روحه الشقيق ، أو اجتماعيا كالذى يصيب المجتمعات من فسق ، ورشوة ، وفجور ، وتجارات محرمة كلها بوار .

---

(١) هناك ثالوث آخر يقع اذا جثم المستعمر على شعب فلابد أن يقع الجهل ، الفقر ، المرض .

(٤)

ورغم وجود شذرات روحية نسبت الى القديس أوغسطين (١) والقديس أنسلم (٢) ، الا أنها لاتمثل اتجاها عاما يمكن الاعتماد عليه أو اعتبارها قاعدة ينطلق منها الفكر الأوربى فى العصور الوسطى ، لأنها استثناءات وردت فى فترات متباعدة نسبيا ، وليست مؤكدة الشبه حتى نعتبر الأولى أصلا للثانية ، كما لم يقدر لكل منهما دور استمرارى فى المسألة ذاتها .

كما لايمكن الاعتداد بما ذهب اليه الدكتور الملائكى (٣) ، أو توماس الأكوينى ، لأن أفكاره كلها رجع صدى لصوت الامام ابن رشد فيلسوف قرطبة الذى حاول التوفيق بين العقل والنقل ، أو بين الحكمة والشريعة ففتح الباب للأكوينى، وبخاصة أن تراث ابن رشد كان فى مقدمة الفكر الاسلامى الذى ترجم الى اللاتينية والفكر الأوربى على وجه العموم ، اذن لاوجود – على سبيل الاستقلال – للأكوينى ، حيث قد استفاد الأكوينى – وهو بصدد الحديث عن كيفية خلق الموجودات – فكرة الخلق المستمر من أبى الوليد بن رشد ، ولايمكن لأحد انكار هذه الاستفادة ، بل

---

(١) القديس أوغسطين فيلسوف ت ٤٣٠م وكان من أفكاره ضرورة سبق الايمان للتعقل وكان يقول : آمن لكى تتعقل .

(٢) القديس أنسلم ١١٠٩م من كبار فلاسفة الأفلاطونية المدرسية أو الفلسفة المسيحية فى عهد الآباء ، وكان يرى أن الايمان ضرورى للعقل وشرط ضرورى لصحة تفكيره .

(٣) هذا الوصف يطلقه عليه أبناء ملته . يراجع نظرية المعرفة عند ابن رشد للدكتور / محمود قاسم .

اننا " نميل كل الميل الى القول بأن الأكوينى قد أخذ شيئا محددا ، بل شيئا هاما عن ابن رشد ، وهو فكرة الخلق المستمر " (١) .

فاذا علمنا أن الأكوينى قد وجد فى فترة متأخرة نسبيا عن بدايات القرن الثالث عشر الميلادى (٢) ، حيث كان عصر النهضة الحديثة قد بدا يطل على أوربا المظلمة ، أمكن القول : بأن الأكوينى وأمثاله من أبرز الأدلة على تأثر الأوربيين بالفكر الاسلامى ، بل من الشواهد القوية على فكرة التأثر التى لايمكن أن تكون مجرد مصادفة عمياء ، أو خبطة عشواء .

كما لايخفين أن عصر النهضة الحديثة فى أوربا قد أقبل فشغل " القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وحمل الثورة على الروح الدينى الصوفى الذى ساد تفكير العصور الوسطى ، وارتد الى العقل الذى استمسك به اليونان قديما ، وأخذ يعتز بمنطقه " (٣) .

---

(١) الدكتور / محمود قاسم — نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكوينى ط ٢ ص ٤ مكتبة الأنجلو المصرية .
(٢) مات الأكوينى ١٢٧٤ م .
(٣) الدكتور / توفيق الطويل — أسس الفلسفة ط ٧ ص ١٢٢ ، دار النهضة المصرية .

(٥)

ومع أن العصور الوسطى شغلت فترة طويلة ، الا أنها لم تكن فى الدولة الاسلامية ، ولم تصل اليها ، وبالتالى فان النور الذى ظهر أثره على مفكرى أوربا قد أتى ثماره مع مطالع عصر النهضة ، بل كان التراث الاسلامى هو الباعث على هذه النهضة العلمية فى أوربا كلها سواء كانت نهضة فى الطبيعة ، أو الفلك ، أو غيرها ، مما لامجال لذكر مفرداته ههنا .

وقد شهد مفكرو أوربا بأن " الحضارة الاسلامية سبقت أوربا فى علوم الرياضيات والفلك والطب والصيدلة وغيرها حتى القرن الثالث عشر ، وهو أمر يعترف به حتى خصوم الحضارة الاسلامية ، غير أن هذا السبق سرعان ما توقف لتتمكن أوربا من اللحاق ثم القفز الى دنيا العلم الحديث ، محققة هذه الهوة الواسعة بينها وبين كل الحضارات الأخرى[1] ومن بينها حضارة المسلمين .

(٦)

وربما تسأل ما سبب تأخر أوربا ووقوعها فى غياهب الجهالة هذه الفترة الطويلة من الزمان التى امتدت أكثر من ثمانية قرون .

---

(١) توبى أ. هاف ــ فجر العلم الحديث جـ ٢ ص ١٧١ وما بعدها.

والجواب : هو وقوع الأوربيين أسرى أمرين :

الأول : صدق الأفكار التى قال بها أرسطو ولو كانت مخالفة للواقع العلمى ، يزعم أن ارسطو لايخطىء أبدا ، وأن سلطان ارسطو لايمكن الاقتراب منه ، لأن نتائجه يقينية ، ورغم أن المسألة لاتتعلق بالناحية الدينية كما أن ارسطو ليس مسيحيا الا أنهم أضافوا تعليمات ارسطو الى الكنيسة فصارت آراؤه فى العلم لها حجية النص الدينى عندهم .

"ومن الواضح أن النسق الكوبرنيكى للكون لم يخرق بعض مبادىء أرسطو لفلسفة الطبيعة — مثل أن للجرم السماوى أكثر من حركة ، حركة حول نفسه وحركة حول جرم آخر ، أو أن الفلك كنظام يتبع الطبيعة حيث منها يستمد قوانينها ، ولكن الأهم أنه خرق الفروض اللاهوتية للمسيحية التى تفترض أن الأرض هى مركز الكون ، وأن الانجيل — المصدر المعول عليه — يقول ذلك ، ولم يقدر كوبرنيكوس وأتباعه هذه الحقيقة ، وانما عملوا وفقا لخطة مرسومة كان لابد وحتما أن تتعارض مع هذه السلطة"

لقد كان الصدام بين النظام العالمى الجديد وبين الآراء اللاهوتية المركبة من خليط من الكتاب المقدس ومن الأرسطية التقليدية قد شكل عقبة كؤد " أمام تقبل نظام كوبرنيكوس ، وكان الصراع قادما حتما ، إما

فى زمن كوبر نيكوس أو بعد حين كما حدث بالنسبة لجاليليو " (١) .

الثانى : فرض السلطة المدنية قرارات السلطة الدينية بالقوة دون مناقشة مما خلط بين السلطتين ، وتحول الدين المسيحى واليهودى الى سوط تلهب به الظهور ، فهو فى يد الملك ، يستخدمه ضد من يحب فى أى وقت يشاء ، دون مناقشة أو دفاع ، أو تفكير فى المصلحة العامة ، فهبط مستوى الأداء ، وبات كل مشغول بأمور بعيدة عن البحث العقلى ، أو التفكير العلمى ، بل بات المفكرون والعلماء فى قلق لايتوقف وسكينة لايعرف لها قرار ، وماذلك الا من الآثار التى فرضتها الكنيسة باسمها ونفوذ الملك باعتباره خليفة الله أو ظله فى الأرض .

مجمل القول : أن العصور الوسطى كان التفكير العقلى فيها مجمدا سواء فى الناحية العلمية أو العملية ، بل كانت المسائل الدينية غير قابلة للمناقشة ، بل كان على المفكر الأوربى - ان أراد العيش فى سلام - الخضوع التام لكل ما يلقى اليه وتقبله حتى ولو كان غير مقبول مما حدا بمراقب لاحق للموقف وهو "عمانويل كانت" الذى وصف المسألة الدينية عندهم بقوله : " ان تعاليم الدين المسيحى كأقراص الدواء ، ان ابتلعت أفادت ، وان مضغت كانت مرة المذاق .

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٧٤

(٦)

بل ساد الأوربيون اعتقاد ساذج يقوم على أن السلطة الدينية اللاهوتية ، والسلطة المدنية هما مصدر الحقيقة العلمية بغض النظر عن مطابقة هذه الحقيقة-التى مصدرها السلطة الدينية والمدنية - للواقع أو عدم مطابقته ، حيث سيطر على الأوربيين اتجاه آخر هو الميل الى الناحية الروحية حتى أمكن القول بأن مفكرى العصور الوسطى فى أوربا شغلتهم الحياة الأخرى التى فرضتها السلطة الدينية والمدنية عن الحياة العلمية التى يمكن توجيهها لخدمة الانسانية فى حياتها العملية(١).

ولم يكن هذا التفكير مسموحا به على اطلاقه ، وانما كان فى حدود معينة مما تفرضه الكنيسة ، وبالشكل الذى يجرى فى رؤوس رجالها وحدهم اذ من المعروف أن تفسيرات رجال الدين للكتب المقدسة اعتبرت بمثابة النص نفسه ، وكان ذلك من أسباب ثورات الاصلاح " (٢) التى قام بها بعض رجال الدين ضد الكنيسة نفسها والتى انتهت الى وجود العديد من

(١) الدكتور / توفيق الطويل / أسس الفلسفة ص ١٢٣ ط ٧

(٢) كثرت ثورات الاصلاح الدينى على اليهودية والمسيحية ولذا ظهرت طوائف عديدة حتى قيل : اذا التقى يهوديان أنشأوا ثلاثة أحزاب دينية ، لأن طبيعة الجدل فيهم قائمة ، وامكانيات رجال الدين متواضعة .

الكنائس ومنها الانجيلية أو البروتستانت(١) الذين رفضوا الانصياع لتفسيرات رجال الدين بعد أن ثبت لهم فقدان رجال الدين الفهم الصحيح للاناجيل نفسها .

وقد بنى اللاهوتيون والمسيحيون فكرة امكانية تصرفهم فى النص على أساس استمرار الوحى لهم ، بل هم يستخدمون اصطلاح " الوحى المستمر وهو أساس صدور القانون الكنسى اذ أن كل قرارات البابوات والمجامع المسكونية ، ومجامع الكرادلة تعتبر الهاما من الله " (٢) وما دام الوحى المستمر معهم ، فلهم الحق فى تعديل النص أو حذفه أو زيادة عليه أو إلغاء العمل به ، وقد استخدموا هذا المفهوم عندهم وفرضه على كل الشعب مما كان أكبر الأثر فى اغلاق دائرة التفكير العقلى ، بل ومحاسبة المفكرين الأحرار كأنهم أصحاب جرائم .

وقاد الكاردينال "بيلازمين" حملة شرسة اتهم فيها كل مخالفيه فى الفكر بالانشقاق على الكنيسة ، وكان مع بيلازمين فريق أخذوا " يفسرون

---

(١) قام بهذه الحركة الاصلاحية ثلاثة من القسس هم مارتن لوثر ، وزونجلى وكليفن ، وسموا أنفسهم انجيليين بمعنى أنهم لايتمسكون الا بالنص الانجيلى ، وسماهم خصومهم المحتجين ، لأنهم رفضوا التعاليم واحتجوا عليها .

(٢) شاخت وبوروث _ تراث الاسلام جـ ٢ ص ١٥٠ .

المقيدة بطريقة ترى فى التأملات الفلكية " لبرونو" ما لا يطاق فيساق بسببها الى حتفه حيث كانت الكنيسة قوة دنيوية رهيبة ،وكانت تقوم فى هذا الزمن المرير بحملة صليبية سياسية — يستخدم فيها الدين فيها كل الوسائط التى تبرر الغاية وكانت أعمال الكنيسة هى اخلاقيات الدولة البوليسية " (١) . لقد اضطهد جان جاك رسو ، غير انه لم يقف اطلاقا أمام محكمة تفتيش كما حدث لجاليليو ، واحرق جيوردانو برونو بعد صلبه (٢)

(٧)

وربما يغلب على أحد ضعاف النظر أن الذى يدفع الى هذه الأحكام ،هو اختلاف المعتقد الدينى بيننا والكنيسه وهو مخطئ لا محالة وذلك لما يلى :

أولا : أننا نحرر محل النزاع فى مسألة تاريخية متعلقة بالعصور الوسطى فى حد ذاتها ،وفى أوربا بوجه خاص ،وتحرير محل النزاع يجعل المرء يتجرد من كل عواطفه الدينية والوطنية ويسيطر عليها بمنطق " ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين. (٣)

---

(١) جاكوب برونوفسكى — التطور الحضارى للانسان — ارتقاء الانسان ص ١١٩ ترجمة دكتور/ احمد مستجير — الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٧ م .

(٢) الفرد اينشتين — الموسيقى فى العصر الرومانتيكى ص ٢٢

(٣) سورة الأنعام — الآية ٥٧

كما أن المسلم يقوده صحيح ايمانه الى الاقرار لكل ذى حق بحقه ، لقوله " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى واتقو الله إن الله خبير بما تعملون " (١) وقوله تعالى : " ولايجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب " (٢)

والمعنى لايحملنكم بغض قوم " لأن صدوكم أن تعتدوا عليهم وهم مسالمون ، وفى هذا دليل على أن الاسلام دين سلام يحارب من يحارب ويسالم من يسالم " (٣) من ثم - فإننا لم نتجاوز الحقيقة ، ولم نتحيز لفكرة مسبقة أو نرتضى حكماليست له أصول ثابتة ، أو أدلة قوية تدعمه .

ثانيا : أننا نقف لا مع الشائع المشهور الذى يبلغ حد الاستفاضة ، وانما مع النقد العلمى ، والدليل الواضح سواء من النقول التى صحت نسبتها الى الفكر اللاهوتى المسيحى ، او من المؤلفات التى تبناها القوم وركزوا

---

(١) سورة المائدة الآية رقم ٨
(٢) سورة المائدة الآية رقم ٢
(٣) الدكتور/ احمد حجازى السقا — لانسخ فى القرآن ص ١٣٩ طبعة دار الفكر العربى أولى ١٩٧٨م .

عليها ولم ينكروها أو يقولوا فيها بما يؤدى الى نقضها أو التخلى عنها .

يقول أحد رجال اللاهوت (١) عن القضاء والقدر قولا ينتهى بـه الى الالحاد حيث قال : " الاعتقاد بالقدر الذى اخترعته الوثنية فى الأصل عند ما شعرت بعدم كفاية معبود اتها فوضعت وراءهم شيئا غامضا أسود اسمه " القضاء والقدر " له ينحنى الآلهة والبشر أجمعين ، وقد تسرب تأثير هذا الاعتقاد الى سائر الديانات حتى ظن معظم الناس أن هذا الشيء المجهول الذى يحمل اسم القدر ، هو الذى يجلب الحظ ، أو يلحق النحس بالانسان فيرفعه الى مرتبة عليا ، أو يفاجئه بضربات متلاحقة " (٢) .

فانظر اليه وهو فى نهايات القرن العشرين يعلن الالحاد مرة أخرى ، ويطعن على القضاء والقدر ، ويصفه بأنه شيء غامض أسود بينما هو ركن الايمان فى قوله صلى الله عليه وسلم " الايمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، حلوه

---

(١) هو رئيس المجمع العام لكنائس الله الخمسينية بمصر .

(٢) القس صموئيل مشرقى — الالهيات ص ٢٦ ط (٢) ١٩٨٧م الكنيسة المركزية للمجمع الخمسينى بشبرا .

وبره (١) ومن آمن بواحد منها وكفر بآخر ، أو آمن ببعضها وتـــرك البعض الآخر فقد كفر لامحالة •

اذن الفكر الاوربى انحصر فى :

١ـ التفكير النظرى القائم على الاساطير الشعبية والقصص الدينى الـذى حاكه فكر رجال اللاهوت •

٢ـ التصورات الساذجه للآخرة حتى صارت قريبة من الخيال الـــذى لا علاقة له بالواقع الدينى الصحيح •

٣ـ الالحاد المغلف بلغة الدين التى صنعها العقل اللاهوتى مـــن غير أن يكون له سند موثق •

٤ـ الانطواء فى الداخل ، والتردد فى قبول الفكر المعلن مع التركيـــز على عدم أهميته ما لم تدعو اليه الكنيسة •

٥ـ الاهتمام بالفكر الارسطى وحده ولو كان مخالفا لكل القواعد العلميـــة التى أيدتها التجربة •

---

(١) صحيح البخارى وهو مروى عن أبى هريرة رضى الله عنه ـ أنظر فتح البارى جـ ١ صـ ٩٦ ، ٩٧ ، وصحيح مسلم بشرح النـــووى جـ ١ صـ ١٥٧ وهو مروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه •

الفصل الثاني

دواعي الفكر الفلسفي

في

عصر النهضة

عصر النهضة فى أوربا هو العصر الذى حرك الفكر الراكد فى أوربا وبدأ فى اتيان ثماره مع نهايات القرن الثالث عشر الميلادى (١) واستمر قرابة ثلاثة قرون وهى التى يمكن اعتبارها الفترة التى عاش فيها الفكـر الأوربى مرحلة الانتقال الى الحضارة المادية ، بعد التخلف والانحلال والعصور المظلمة .

وهذه الفترة ظهرت فيها فلسفات كثيرة منها ما هو تجريبى ومنهـا ما هو ميتافيزيقى ، بل وبعضها فيزيقى (٢) ، كما ظهرت أفكار المثاليـة والوجودية وغيرها من الأفكار التى ظلت فترة حبيسة رؤوس أصحابهـا ، لكنها لم تؤت ثمارها الا فى عصر الفلسفة الحديثة .

على أن عصر النهضة فى أوربا لم تكن فيه فلسفة قوية تحسم النـزاع لصالحها ، وانما كانت هناك أفكار كثيرة ، بعضها يريد البقـاء والاستمرار ، وآخر يريد الهدم حتى تظل الأصول التى قام عليها باقيـة وحتى تظل وحدها فى الساحة الجديدة .

---

(١) حيث تأسست جامعتا باريس وبولونيا على نمط الدراسات فـى الحضارة الاسلامية — راجع توبى ا . هاف . فجر العلم الحديث ص ١٢ .

(٢) أصول هذه الفلسفات تم قبسها من المناهج الاسلامية ، بل هـى قامت على الثقافة الاسلامية التى نقلت اليهم عن طريق الترجمة الـى اللاتينية .

وبات من المؤكد أن هناك انطلاقات كثيرة، لم تكن بينها روابط ثنائية أو متبادلة ، ولكن ظهرت دوافع عديدة كانت بمثابة التوازن القوى بين الفكر القديم المتمثل فى العصور الوسطى ، وبين الفكر المنطلق الذى لاتقف فى مقابلته حدود ، أو توقف نشاطه قيود ، وأرى من الضرورى الحديث عنها وهى :

الداعى الأول : الرغبة فى الانفلات من السلطان الكنسى :

أجل فرضت الكنيسة سلطانها الدينى الروحى على الفكر والمفكرين إبان العصور الوسطى ، وكان هذا السلطان يتابع المفكرين من رؤسهم وأسرارهم الخاصة ، وأسرهم بل تعدى كل ذلك حتى وصل منطقة الهمس الداخلى، أو المنولوج النفسى ، وحسابهم على كل ما يصدر عنهم من خلال محاكم التفتيش .

كما انه تهيأ " للكنيسة سلطان واسع النطاق ، ممدود الرحاب روحيا بحكم وظيفتها — الدينية — وسياسيا بسبب ضعف الملوك والأباطرة فسيطرت على التعليم فى المدارس ، واحتكرت لنفسها تأويل الكتاب المقدس ، وأدانت كل من جاهر بحقيقة لم تقرها الكنيسة من قبل " (١) ، حتى ولو كانت تلك الحقيقة فى الميدان العلمى .

(١) الدكتور / توفيق الطويل — قصة الصراع بين الدين والفلسفة ط ٣ ، ص ١٠ دار النهضة العربية ١٩٧٩م .

فلما وجد المفكرون فى أوربا طريقهم لعزل الدين عن الدنيا ، وبيان أن الدين ميدانه الكنيسة ، ومصدره الكتاب المقدس ، وتأويلات رجال الدين المسيحى ، والمجامع المسكونية ، وتفسيرات الكرادلة بينما العلم ميدانه المعمل ، وهو متعلق بالدنيا وليس بالدين ، فقد التمس الفلاسفة هذا الطريق — فصل الدين عن الدولة فى المسيحية — واعتبار الدين للكنيسة بينما ينظر للعلم على أنه للحياة المادية ، فاذا كان الدين لله ، فان العلم للحياة ، واستعذبوا هذه المقولة ، ولم يفكروا فى التخلى عنها ، أو التباعد عن هذا الطريق .

بل انطلقوا فيه لأبعد مدى ، لا ايمانا بأن فصل الدين عن الدنيا حقيقة ، وانما كوسيلة للهروب بالفكر من سلطان الكنيسة ، ومتابعة رجال الدين المسيحى ، وقد قوى هذا الاتجاه فى أوربا واشتد عوده ، حتى كان أحد الانطلاقات القوية التى حملت الفكر الفلسفى فى أوربا الى دنيا الناس ، بعد أن كان يعيش منعزلا فى كهوف الخوف ، أو تحت عباءة النسيان .

وانوه الى أن العلمانية برجالها مازالوا يرددون هذه المقولة " الدين لا رسالة له فى المجتمعات المتحضرة " والعلمانية هى الدين

الحقيقى (١) وهم لو قالوا ان هذا فى المسيحية ربما كان المدافع عنها المنتسبون اليها ، أما وانهم قد تلفظوا بها فى بلادنا نحن المسلمين فلا أقل من أن نقول : " فرقوا بين أمرين : "

الأول : النص الدينـــى .

الثانى : الفكر الدينـــى .

أما لماذا ؟ ؟

فلأن النص الدينى فى الاسلام ثابت ، متواتر ، محفوظ بحفـــظ الله ، مايزال ، وسيظل ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، قـــال تعـالى : " إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون " (٢) .

أما النص الدينى غير الاسلامى ، فأصحابه يقررون أنه ليس نصـــا مقدسا ، اذ لم يكتبه المسيح بنفسه ، ولا أملاه على أحد من تلاميـذه ، ولا راجعه ، ولا استمع اليه ، انما هى أناجيل متعددة ، تمثل وجهة نظر بعض الأتباع فيما سمعوه عن المسيح نفسه ، والفرق كبير جدا " (٣)

---

(١) الدكتور/ عبد الصبور شاهين — قصة أبوزيد وانحسار العلمانيـــة ص ٢٣٩ وهو يصور أمراء أحد العلمانيين ط الناشرون العرب بالرياض.

(٢) ســـورة الحجر الآية رقم : ٩

(٣) راجع عقيدتا رفع عيسى ونزوله بين الاسلام والنصرانية للمؤلف — رسالة ماجستير بكلية أصول الدين بالقاهرة — كانت اطروحة علمية لدرجة الماجستير حصل عليها الطالب بتقدير ممتاز ١٩٨٢م .

إنها تمثل ما سمعوه عنه ، لا ماسمعوه منه ، كما أن أقدم انجيل كتابة كان بعد المسيح بما يزيد على الثمانين سنة ، وهو ما أخبرت به مؤلفاتهم (١) ، وعبر الناقدون قائلين ، انها من خيال مؤلفيها التقى، (٢) وليس من املاء المسيح ، ولاهى من تعاليمه المباشرة ، كما أنها اناجيل وليست انجيلا (٣) ، فاذا أضيف اليها ما سبق ، انتهى الأمر الى عدم وجود نص دينى سليم ، ثابت متواتر ، سوى القرآن الكريم ، وصحيح السنة النبوية المطهرة .

أما الفكر الدينى فحجيته مستمدة من النص المنسوب اليه ، ولذا فإن ثورة المفكرين فى أوربا على الفكر المسيحى لايعنى امكانية الثورة على النص الدينى الاسلامى ، وانما يمكن القول بأن الفكر الاسلامى مرن يقبل المناقشة ، ويسلم بالحجة ، ويتعامل مع البرهان ، كما أن أصوله قائمة على الصدق والضمان (٤) الالهيين .

---

(١) سيرة المسيح — كنيسة قصر الدوبارة ص ١٤ ، ١٥ .
(٢) جوستاف لوبون — حياة الحقائق ص ٩٧ ترجمة عادل زعيتر .
(٣) تزيد على أثنين وسبعين انجيلا ، لكن الذى اعتمدته المجامع منها : الأربعة المشهورة وهى : ١— انجيل متى ٢— انجيل مرقص ٣— انجيل لوقا ، ٤— انجيل يوحنا ، هذا بخلاف الرسائل وأعمال الرسل وسائر الملاحق التى أضيفت لهم من الآباء اليسوعيين .
(٤) الصدق والضمان الالهيين فكرة طرحت نفسها على المفكرين المسلمين ونقلها عنهم كل من ليبنتس وديكارت . راجع المونادولوجيا والتأملات .

كما أن الدين الاسلامى هو أعظم رسالة اذ هو الذى قاد المجتمعات الى التحضر ، وصنع لها حضارات تتناسب مع ظروفها ، وهو الدين الوحيد المعتبر شرعا ، أما العلمانية فهى الالحاد بعينه ، لأنها تعنى اللادينية ولا يدين بها الا الملحدون ، وهم لاقيمة لهم ، ولا وزن لأفكارهم .

اذن كانت الرغبة فى الانفلات من سلطان الكنيسة أحد الأسس التى قادت الى نهضة فكرية ، وساعدت على امكانية الخروج بالأبحاث العلمية من دائرة هيمنة الكنيسة ، حتى أن بعض الملوك والأمراء حاول تدعيم تلك الحركة الثورية فى أوربا بشكل غير معلن ، بغرض أن يتفادى سطوة الكنيسة ، وأحكام الكفر والايمان التى يقوم باطلاقها رجال الدين المسيحى .

الداعى الثانى : ظهور العلم التجريبى وانتصاره فى ميادين تطبيقه :

كان لظهور العلم التجريبى أثر كبير فى نفوس القائمين عليه ، والمستفيدين منه سواء كانت استفادة نتائج وثمار ، أو نتائج المزيد من المحاولات مع الاستمرار ، فبعد أن ترجمت كتب العلم المادى الطبيعى الاسلامية الى اللسان الأوربى ، راح العلماء يتابعون خطواتها ويعملون على تطبيقها حتى يمكن الاستفادة من نتائجها بأوسع مايكون ، وهو ما تحقق بالفعل ، فظهر تجريبيون من أمثال روجر بيكون ، وجاليليو ،

وكوبر نيقوس ، وفرنسيس بيكون (١) .

أما روجر بيكون وفرنسيس بيكون فأمر كل منهما له صفة معينة تخالف في بعض التفصيلات كلا من :

(١) جاليليو + ١٦٤٢ م

(٢) كوبر نيكوس + ١٥٤٣ م

(٣) برونو + ١٦٠٠ م أحرق جيوار دانو بعد صلبه (٢)

ونذكر نبذة مختصرة عن كل منهم على النحو التالى :

(١) كوبر نيكوس :

رأى من نفسه رغبة ملحة في تعاطي العلوم الطبيعية ، ولما كانت الدراسة قاصرة على رجال الكنيسة فقد احتال للأمر وانضم للكنيسة وعاش بين رجالها وجدرانها ، لكنه تفرغ لدراسة العلوم الفلكية ، وقد يتسلق سور الكنيسة بحيث يمكنه الهرب من حراستها المشددة رغبة منه في استمرار الدرس والبحث ، حتى انتهى الى الرأى القائل : ان الأرض تدور حول الشمس وان حركة النجوم وحركة الأرض من الحركات العادية الظاهرية ، ومن ثم انتهى الى تفسير الدوران للأرض ، وانه محورى حيث تدور الأرض حول محورها مرة كل يوم .

---

(١) راجع كتابنا — خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة ص ٢٠٠ ط صنعاء عام ١٩٩٦م .

(٢) الفرد اينشتين — الموسيقى في العصر الرومانتيكى ص ٢٢

لكن هذا الرأى العلمى الذى وصل اليه لم يجد له آذانا تصغى داخل الكنيسة ، فخاف ان نشره تتخذ الكنيسة اجراء ضده ، وكانت سنه قد تجاوزت الأربعين ، فظل محتفظا باكتشافاته داخل نفسه ، خوفا من غضب رجال الكنيسة ، ولم يبح بها الا لفئة قليلة من أخلص أصدقائه ، وقبيل وفاته قرر أن يعلن كتابه واكتشافاته فما كان من الكنيسة الا أن طردته وطاردته .

وفى عام ١٥٤٣ م ظهر كتابه حاملا رأيه العلمى ، فما كان من الكنيسة إلا المطاردة الشديدة التى انتهت به الى الموت فى نفس العام ولم تقف المطاردة عند موته ، ولكنها استمرت فى مطاردة كتبه وملاحقة أفكاره ، والقبض على معارفه وأصدقائه حتى كانت النهاية تجريم كل من يضبط عنده شىء من كتبه ، فتمت مصادرة كافة مؤلفاته ، كما عوقب كل من ينسب اليه .

(٢) برونـــــو :

ذلك الراهب الذى أدى دورا فى دراسة علم الفلك ، حيث انتحى جانبا فى صومعته يتعامل مع علم الفلك ، ويدون أبحاثه فى سرية تامة ، وحيطة شديدة ، وحذر من أن تصل أخباره رجال الدين ، لكن

ماظنه خافيا لم يلبث أن بلغ الى رؤسائه ، فما كان منهم الا أن هددوه بانزال أشد العقاب به .

ولما لم يجد حيلة فر من وطنه ايطاليا الى بلد آخر يضمن فيه السلامة ، ويطمئن على ممارسة أبحاثه مع الاستمرار فيها ، ورغم أنه فى بلد آخر الا أن الكنيسة أصدرت أحكامها عليه ، وأبسطها اعتباره عدوها الأول ، من ثم ظلت تطارده برجالها من كل ناحية حتى تم القبض عليه ، وأودع السجن مدة ثمانى سنوات ، فلما لم يرجع عن رأيه العلمى قررت الكنيسة اعدامه ، وفى صباح الثانى عشر من يناير ١٦٠٠م تم تنفيذ حكم الاعدام فيه حرقا ، داخل مدينة روما الدولة المسيحية التى وطدت لها مكانا بايطاليا .

(٣) جاليليـــو :

عكف الرجل على دراسة الأجرام السماوية ، والعالم الطبيعـــى من سدم ، ومجرات ، حتى إكتشف مجموعة الكواكب ، من ثم غضب رجال الكنيسة وأصدروا أمرا كهنوتيا بأن تتم محاكمة جاليليو فى روما عساه يلقى مصير سابقه ، ولم يكن الرجل جلدا ، فبعد تعذيب لم تطل مدتــه تراجع الرجل عن الآراء التى كان ينادى بها ، وأعلن ذلك كله أمــام جمع كبير من رجال الكنيسة ، ولكن ذلك لم يشفع له ، ولم يتم الافــراج

عنه ، وانما ظل سجينا لايعرف الحرية ، ولايتحدث معه أحد ، حتى مات عام ١٦٤٢م ، وفى الحالة التى مات عليها الرجل آراء عديدة ، اقربهاأنه مات مسموما بيد رجال الكنيسة .

كما أن ظهور النتائج العلمية دفعت المفكرين الأوربيين التى تلمس هذا الطريق وخطواته ، بل برز فيهم شجعان فكر ، اقتحموا ميدان البحث العلمى فى الخفاء مرات عديدة ، وفى العلن واحده ، وباتت الجرأة الفكرية لدى هؤلاء تقود أصحابها-رغم ما ينتظرهم من عقوبات توعدهم بها رجال الدين المسيحى ، أبسطها الحرمان من مغفرة الرب - الى مزيد البحث وكثير من الدرس .

بل أن بعضهم تحولت صور الـديد معهم الى مباشرة فعلية ، حتى أن بعضهم ألقى فى النار حرقا ، وبعضا آخر لقى حتفه جوعا وحرمانا ، لكن ذلك لم يمنع من وجود مفكرين جدد استعذبوا البحث العلمى ، ارتضوا ألهان التأمل العقلى ، وقارنوا بين متعة العلم ولذة التفكير ، وبين ضلال الجهل ، فاختاروا الأول ضاربين عرض الحائط بما ينتظرهم من عقوبات توعدهم بها القسس ، أو فرضها رجال

الكنيسة " (١) .

وإذا كان رجال المسيحية قد رفضوا العلم المادي لأنه — من وجهة نظرهم — تجديف وهرطقة ، فان بعضهم بدأ في مناصرة المفكرين بعد أن بدأت الثمار الجيدة للعلم المادي تجنى ، وتظهر في أشكال ايجابية ، كقطع المسافات الطويلة في وقت قصير نظرا للطاقة والحركة المنتظمة ، وهو ما عرف بالميكانيكا " (٢) . من ثم انعطف بعض رجال المسيحية يتخذون هذه الأفكار لكن في حدود ضيقة جدا ، وبشكل غير معلن .

كما أن تقلب النتائج وتنوعها في العلوم الطبيعية وقابليتها للاعادة والتكرار وابراز نفس النتائج أدى الى مزيد من الثقة في نتائج

---

(١) كانت هذه العقوبات تبلغ في أشكال عديدة — من ناحية الاعلان عنها — فربما يبلغ بها المعاقب عن طريق أسرته أو رجل الدين المكلف بوعظ المنطقة ، أو توضع تلك العقوبات في أماكن بارزة بالكنائس الكبرى وفي أماكن يكثر التردد عليها من أفراد الشعب نفسه .

(٢) المعروف أن هناك كمين : الأول الكم المنفصل وهو الحساب بأرقامه والجبر برموزه ، الثاني الكم المتصل وهو المعنى بالهندسة التي هي علم السطوح والأحجام ، وكذلك الميكانيكا التي هي فرعان : الديناميكا ويقصدون بها الحركة ، والاستاتيكا ويقصدون بها الانتظام ، وبالتالي فان معنى الميكانيكا هو القوة المتحركة المنتظمة ، راجع دى بروليه — الفيزيا والميكروفيزيا .

تلك العلوم ، وبات من المؤكد أن وقوف الكنيسة فى وجه هؤلاء ليس له ما يبرره ، بجانب أن القواعد التى بنيت عليها أحكام تكفير هؤلاء والحاد أولئك ، لم تجد لها سندا واحدا من النص ، أنما هى مجرد آراء لايرقى بها أصحابها ولاترقى هى بهم ، بل كلاهما يتهافت ومعه الآخر .

اضف الى ما سبق وقوع رجال الدين أنفسهم فى غرام العلوم المادية ، حتى ظهر من بينهم فلاسفة ومفكرون على نمط القديس توما الأكوينى الذى عرف عندهم باسم : الدكتور الملائكى " (١) الذى استفاد من تراث المسلمين لأبعد حد ، حتى كانت آراء أبى الوليد بن رشد هى زاده العلمى الذى تسلح به ، وكانت آراء ابن رشد قد ترجمت الى اللاتينية فى وقت مبكر ، مما مكن لمتابعى الفكر الاسلامى من التعرف اليها والوقوف عليها .

---

(١) راجع نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكوينى للدكتور / محمود قاسم ط دار النهضة .

الداعي الثالث : ظهور حركات التنوير في أوربا ومناهضتها الفكرية :

من المعروف أن الكنيسة فرضت لنفسها سلطة دينية بلغت المرحلة الأعلى من الامكانيات التي يطيقها البشر ، كما اتبعت سياسة لايمكن لأحد الانفلات من مراقبتها أو التخفي بعيدا عن سلطانها بحيث يمكن القول : بأن الكنيسة منحت نفسها سلطة دينية روحية وسياسية معا ، دون أن تقوم هذا على أسس ، غير مجرد الادعاء أو الزعم بأن الكنيسة بيت الرب ، وتعاليمها هي نفسها تعاليم الآب .

وربما كان جاك روسو هو الفيلسوف الفرنسي الاجتماعي من أقرب الذين عبروا عن الفرق بين الكنيسة المسيحية ، والمسيحية السياسية تقرر أن المسيحية تنقسم الى قسمين لايمكن تجاهلهما :

القسم الأول : مسيحية الانجيل :

وهي مسيحية ذات صفات محدودة ، انها تبشر بالعبودية وتنادى بالطاعة ، وفي داخلها ميل للطغيان ، بمعنى أنه متى استطاع طاغية فرض نفسه على مواطنيه حتى يستولى على السلطة باعتباره ارادة الله ، فسوف ينال من الناس قبولا ، ويتحقق له نوع من التكريم متى كان طاغية مفروضا من قبيل الانجيل ، بل انه لو أساء تصرفاته ـ الحاكم الطاغية ـ

فلا يمكن لشعبه أن ينظر اليه الا على أساس أنه العصا الالهية التـــى يؤدب بها الرب عباده ، وهو ما تبشر به المسيحية الانجيلية .

ثم أن الانجيل لايؤسس دولة ، أما لماذا ؟ فلأن المسيحييـــن الحقيقيين ما خلقوا الا ليكونوا عبيدا لغيرهم ، انهم لم يتعلموا العنف ولايفكرون فى سفك الدماء ، لأنهم ان فعلوا ذلك خالفوا تعاليـــم الانجيل التى تنادى بالوداعة وتطالب بالتسامح ، من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الآخر ، ومن طلب ثوبك فاخلع له رداءك ، لأنه مـــاذا يستفيد الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه .

القسم الثانى : مسيحية القسس :

وهى التى يقوم على بلورة أفكارها وقيادتها القسس ، وهـــذه المسيحية ذات اتجاهين :

أ ـ اتجاه دينى ب ـ اتجاه مدنـــى .

ثم هى فى النهاية تخضع المؤمنين بها الى العديد مـــــن الواجبات المتناقضة ، فهى تطالبهم بالسلم ثم تدفعهم للحرب وتطالبهم بالفضيلة ثم تقودهم الى كل أنواع الرذائل ، وفى كل حالاتها تعتمد علـــى الأكاذيب المختلقة ، والقصص الخيالية ، والخرافات مع الادهـــاش بالمعجزات .

بل انها افترضت في الناس البلادة والبله معا ، حتى ساقتهم لعبادة اله لا وجود له ، والقيام بطقوس فارغة عن كل معنى نبيل ، ثم هي في النهاية اتجاه خاطىء ، ودين متعصب يحيل الشعوب الآمنة الى سفكة دماء لا يعيشون الا على دماء القتلى والأشلاء الممزقة والأعراض المنتهكة ، والصراع الذي لا يقف عند حد .

وهذا التصرف الشاذ تسرب الى أعماق نيتشه الفيلسوف الألماني فأصابه بخيبة أمل حتى نادى : بموت الاله — في المسيحية — ووصف طقوس الكنيسة ، وكهنوتها بأوصاف هي جديرة بها فقال : " أنظروا الى المساكن التي بناها هؤلاء الكهنة وقد سموها كنائس ، وما هي الا كهوف تنبعث منها روائح التعفن ....

لقد أراد هؤلاء الكهنة أن يعيشوا كأشلاء الموتى فسربلوا جثثهم بالسواد ، فاذا القوا مواعظهم انتشرت منها رائحة اللحود ... ان من يجاور هؤلاء الناس — رجال الكنيسة — فكأنما هو ساكن على ضفاف الأنهار السوداء ، حيث لا يسمع الا نقيق الضفادع الحزين (١) .

---

(١) هكذا تكلم زرادشت ص ١١٤ ترجمة فليكس فارس .

والمتابع للحركة الفكرية يرى الكنيسة ابتداء من القرن الخامس قد فرضت نظام الاضطهاد وسعت اليه ، وكان القديس أوغسطين + ٤٣٠ هو الذى دعا اليه وباشر خطوات تنفيذه ، وكان القديس من أوسع " آباء الكنيسة نفوذا ، فمضت الكنيسة تعمل جاهدة لقمع الهرطقة وجندلة أهلها ، وكان لهذا أثره البالغ فى عرقلة النظر العقلى ، ووقف التقدم العلمى " (١) فى أوربا أبان العصور الوسطى ، واستمر حتى مطالع عصر النهضة ، لكن بنفوذ أقل من سابقه .

لم تقف سلطة الكنيسة عند هذا الحد وانما عدت الى فرض العديد من القيود التى يراد بها الحد من حرية الفكر ، وتقليص دور المفكرين ولو كان فى الجانب المادى العلمى ، بعيدا عن الميدان التى تعتبره الكنيسة حقا من حقوقها ، أو ميدانا من ميادينها الخاصة التى لايمكن للفكر أن يقترب منها ، رغم أن " اله أرسطو يكاد لايكون بينه وبين اله الموعظة على الجبل أدنى قربى " (٢) ومع ذلك فقد دافعت الكنيسة عنه .

من ثم فقد سلكت الكنيسة برجالها عدة طرق ، وبذلت العديد من المحاولات لاحكام هذا الطريق والسيطرة بشكل واسع على مراحل

(١) د / توفيق الطويل : قصة الصراع بين الدين والفلسفة ط٣ ص١٠٠ دار النهضة العربية ١٩٧٩م .

(٢) آرثر لفجوى سلسلة الوجود الكبرى ص ٤٣ ط دار الكتاب العربى — ترجمة دكتور / ماجد فخرى .

تنفيذه ، مستخدمة ما يلى :

أ ـ فرض الرقابة السياسية والروحية :

أجل حاولت الكنيسة أن تجد لنفسها مكانا روحيا وسياسيا حتى على الأفكار التى تدور برؤس أصحابها ، فلم تسمح باقامة ندوات علمية أو لقاءات فكرية ، أو اجتماعات أدبية ، الا باذن مسبق من الهيئة الدينية ، ورعاية خاصة من راعى الكنيسة ، وموافقة كتابية من الكنيسة الأكبر ، واقرار بأن هذا الاجتماع لن يتناول الجوانب الدينية مهما كان مكانها ، أو وضعها فى الطقوس الدينية .

وحتى يمكن الاستيثاق فقد دفعت بأهل الثقة من المتعاملين معها للقيام بأعمال التفتيش ، ولو كان من أعماق الرأس ، من ثم فلا نعجب حينما نقرأ أن أحد رجال الكنيسة استدعى مفكرا وسأله عن أفكاره لكنه لم يصدق أن يكون ما قصه عليه هو مجرد الأفكار التى هزت الوجود الكنسى ، فلما داخلته الحيرة حاول معرفة المزيد فلم يفلح ، من ثم انطلق ومساعدوه لضرب رأس المفكر فى جسم صلب" (١) آملين أن تبرز الأفكار — التى ظنوها فى رأس الرجل حبيسة — وهم بفعلهم لم يظنوا أنهم ارتكبوا محرما ، وخالفوا للانجيل قواعدا ، ألم يقل الانجيل لهم "أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، احسنوا الى مبغضيكم" (٢) .

---

(١) راجع جريمة قتل فى الكاتدرائية .
(٢) الكتاب المقدس — العهد الجديد .

ب ــ فرض الرقابة على المطبوعات :

فرضت الكنيسة حظرا على كافة ألوان الثقافة المكتوبة ، ابتداء من ورق الطباعة ، وآلات الطباعة حتى لايفلت من انتاجها الى السوق شيء دون الرجوع للكنيسة ، كسلطة مزدوجة ــ سياسية وروحية ــ ومن ثم تجمدت حركة الطباعة ، والنقل والنسخ ، ولم يبق للتراجمة دور سوى النقل من المخطوطات التى يرى رجال الكهنوت امكانية ترجمتها ، أو نسخها أو اعادة النظر فيها ، وأغلبها من التراث اليونانى فى جانبه الأسطورى ، ولم ينقل فكر أرسطو الا فى عهد الفلسفة المسيحية التى قادها آباء الكنيسة بأنفسهم .

من ثم فلا تعجب حينما ترى الكنيسة وقد تعددت مهام رجالها ثم تتوسع هى فى البحث والتحرى ، وفرض الضمير الساذج على الإتجاه العلمى سواء فى موضوعات الفكر أو نتائجه ، ثم تعمل على فرض المزيد من القيود ، مما حدا بالمفكرين لتكوين اتجاهات مضادة عماده المفكرون الذين يقع عليهم العبء الأكبر ، من هنا ظهرت الحركات التنويرية (١) فى أوربا ، بعضها كرد فعل ، والبعض الآخر رفض سلوكى .

---

(١) راجع كانت مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة ــ ترجمة د / نازلى اسماعيل ص ١٩ .

فاذا أضفنا أن هذه الاجراءات قد وسعت حدة الخلاف وجعلت الصراع فى الصدور يصل مرحلة الغليان ، لأن فرض الرقابة معناه عدم التفرقة بين الكتاب ذى الموضوع الدينى ، أو الموضوع العلمى ، أو الموضوع الفلسفى ، مع أن المفروض أن تكون الرقابة فى حدود ما يحفظ أمن البلاد وسلامتها من كافة النواحى .

أما أن تتم الرقابة على أبناء البلد نفسه ، وعلى فكرهم بالذات ، فهذا أمر دفع المفكرين للبحث عن طرق يواجهون الكنيسة فيها بعيدا عن تدخل الدولة الرسمى ، فكان هذا الطريق هو البحث العلمى فى ميدانه التجريبى ، لكن لم يسلم هذا الطريق اذ قامت الكنيسة بوضع قائمة بالكتب التى يمكن قراءتها من غير تجريم ، والموضوعات التى يمكن البحث فيها بشكل مقبول ، وبالطبع تم استبعاد كافة الكتب التى لم تقرها الكنيسة .

جـ - فرض العقوبات المتنوعة : (١)

لأن العقيدة المسيحية لايمكنها اقناع الناس بأحقيتها فى القبول

---

(١) تلك العقوبات نالت حديثا طويلا من المؤرخين وبخاصة الذين عنوا بالحديث عن العصور الوسطى ، راجع د / توفيق الطويل قصة الصراع بين الدين والفلسفة .

من سواها (١) ، فقد لجأ رجال الكهنوت الى فرض عقوبات كثيرة بعضها تمثل فى الحرمان من ميزات كانت قائمة ، وبعض آخر تمثل فى الحجر على الحريات وتحديد اجبارى للاقامات ، وبعض ثالث نال الضرب الشديد ، والنفى والمصادرة للحريات وتأميم الملكيات الخاصة .

وربما امتد لتشريد الأسرة كلها متى رأت الكنيسة أن ذلك يمكن ادخاله تحت العقوبات المقررة ، وقد تمتد الى حرق الزراعات ، وهدم المنازل ، والتصفية الجسدية ، مع الحرمان من ممارسة كافة الحقوق ، مادام ذلك كله يمكن أن يؤدى الى نتائج يظنها الكهنوت مؤدية الى غرضهم ، ولانعدم القول بأن هذه العقوبات كانت تمتد الى الشخص نفسه كما تتجاوزه الى اسرته ، بغض النظر عن كون هذه الحقوق مدنية أو جنائية ، دينية أو سياسية .

على أن الذى يدعو للدهشة هو اعتماد رجال الدين فى العصور الوسطى على الفكر الأفلاطونى والأرسطى بعيدا عن نصوص الدين الذى

---

(١) لأنها تناقض العقل ، وفى ذات الوقت هى تهمله والدليل مايردده القسس . خذ وانت أعمى ، أو ألغ عقلك وسلم ، وما يقوله الرب لايفهمه الشعب .

ينتمون اليه ، والأكثر دهشة أن رجال الدين راحوا يتعبدون بنظريات افلاطون ، وتعاليم أرسطو ، ويدفعون الناس الى التمسك بهم ، وعدم التخلى عنهم ، أو توجيه القدح لهم ، حتى ولو كانت النظريات التى يعتمدون عليها لاتمت للحقيقة بصلة .

فمثلا فكرة " تدرج الموجودات وهى عقيدة فلسفية إلا أنه كثيراً ما اتخذها اللاهوت المسيحى - مقتفيا أثر الأفلاطونية المحدثة - محوراً لتأويل نظرى أصلا للكون " كما أن الفكرة القائمة على امكانية اقامة حدود فاصلة بين الموجودات الطبيعية غير محسوسة وشبه متصلة هى أيضا فكرة أرسطوطاليسية ، وقد استفادها علم الحياة فى مراحله الأولى (١) من فكر أرسطو مباشرة ، بعد تنقيحه لتعاليم أفلاطون الأغريقى .

وقد فرضت الكنيسة عقوبات متعددة على من يخالف الفكر الأرسطو طاليسى والأفلاطونى ، بل والأفلوطينى (٢) كذلك ، ودافعت الكنيسة عن كل هذا الفكر باعتباره أصلا من أصول المسيحية التى تجب المحافظة

---

(١) آرثر لفجوى - سلسلة الوجود الكبرى - محاضرات فى تاريخ الفكر الفلسفى ص ١١٣ ترجمة د / ماجد فخرى ط دار الكاتب العربى بيروت ١٩٦٤م .

(٢) أفلوطين مصرى وتنسب اليه الأفلوطينية ، وهو غير أفلاطون اليونانى وتنسب اليه الأفلاطونية ، وبينهما فروق كثيرة . راجع - تاريخ الفلسفة اليونانية للدكتورين عوض الله حجازى ، محمد السيد نعيم .

عليها ، ومن خالف هذه الأصول دفع به الى أتون العذاب بكل ألوانه وكافة أشكاله .

د ـ انشاء شبكات مطاردة وتصفية :

لم يهدأ رجال الكنيسة فى العصور الوسطى ، وبخاصة بعد الحملة الشرسة التى قادها القديس أوغسطين + ٤٣٠ ضد المفكرين ، وانما تشددوا فى المطاردة الفكرية ، وبدل أن يتسامحوا مع المخالفين فى الفكر ، انطلقوا يتعقبونهم الى أبعد مدى ، حتى أنهم لم يكتفوا بما اتخذوه ، بل أضافوا العديد من وسائل الضغط الفكرى ، والتفتيش على المفكرين .

من ذلك أنهم كونوا شبكات مهمتها مطاردة المفكرين ، ومتابعة خطواتهم ، وتعقبهم فى كل مكان ، حتى أن بعضهم كون فرق اغتيالات مهمتها تصفية المخالفين الفارين ، بكل ألوان التصفية فكريا ، وجسديا او احضارهم أحياء لتوقع عليهم العقوبات التى صدرت ضدهم من خلال محاكمات صورية ، قام بها الشواذ من القسس ، والقساوسة الكرادلة ، دون مراعاة لوضع المفكر السياسى ، ان كان نزيلا فى البلاد ، أو مواطنا أصليا (١) ، وقد نجحوا فى هذه المسألة لحد ما . اذ كان بعض الملوك

(١) فعلوا ذلك مع ديكارت حينما كان بالسويد وكذلك عمانويل كانت حينما ذهب الى بروسيا كمهجر فكرى لكنه لم يطل به المقام لكثرة المطاردة ، أنظر خواطر حثيثة فى الفلسفة الحديثة للمؤلف .

يباركون هذه الاجراءات ، حتى يظل صوت الكنيسة عاليا بأن الملك هو ظل الله فى الأرض ، وهو ما يعنى استمراره ملكا لايمكن الخروج عليه ، ولو كان طاغية .

هـ — تغليظ العقوبات :

لجأ رجال الكنيسة فى العصور الوسطى الى التعامل مع المفكرين بما لم يتعاملوا به مع المجرمين ، اذ فرضوا عليهم عقوبات شديدة بلغت حد التعذيب ، وتجاوزته الى القتل لمجرد وقوعه فى مخالفة لتعاليم الفكر الأغريقى الذى تعتنقه الكنيسة ، مهما كانت المخالفة تتعلق بالدين أو الفكر ، كمسالة كروية الأرض ، والنسب والتناسب ، وموقع الأرض من الشمس ، مع أن الفكر الدينى المسيحى اختلط بالفكر الأفلاطونى حتى صار هو المجموعة التى كونت لاهوت العالم المسيحى فى القرون الوسطى ، وفلسفته الكونية (١) .

وقد بالغوا فى التغليظ حتى أحرقوا مخالفيهم احياء ، أو القوهم الى الأسود الجائعة ، والحيوانات المفترسة تلتهمهم أحياء ، فينكسر

---

(١) آرثر لفجوى — سلسلة الوجود الكبرى ص ١٢١ .

كل قلم ، ويختفى كل رأى حر ، فتذل الجباه ، ويعيث فى الأرض فسادا العتاة ، ولا يبقى الا صوت الكنيسة ينفخ فيه أصحاب الجهالة الجهلاء والهوية النكراء .

وكان بعض اليهود قد تسللوا الى المراكز القيادية فى الكنيسة متظاهرين بأنهم مسيحيون ، وماهم الا يهود من الرأس للقدم ونالوا فى الكنيسة حظوة فتسلطوا على رجال الدين فيها ، وساموهم سوء العذاب ، ولو كانوا مسيحيين لطبقوا أبسط تعاليم الدين ، احبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا الى مبغضيكم (١) .

و — فرض السوط على الضمائر :

لم يقف رجال الدين فى العصور الوسطى عند حد مراقبة المفكر من سلوكياته والحكم عليها ، وانما حاولوا فرض سلطان جديد لهم على النفوس من داخلها ، واستكناه الضمائر بكل ما فيها من عمق وخفاء رغبة منهم فى أن يحاسب المرء على ما فى ضميره ونيته ، وان لم يحاول اخراجها الى عالم الوجود ، من ثم أنشأوا محاكم التفتيش ومن مهامها تعقب المخالفين بالتفتيش الجوانى عن كل مافى الضمائر والنوايا التى تعتصم كأجنة فى أرحام الفكر نفسه .

---

(١) الكتاب المقدس .

على أن الرهبان — أيضا — كانوا احدى ادوات التدمير ، فمثلا الراهب " راسبوتين " ذلك الشيطان المقدس تسلل الى قيصر روسيا لمعالجة ولى العهد ، لكنه ما لبث أن سيطر بنفوذه على القيصر وسياسة الدولة ، وأنزل بها من مشكلات السياسة والاقتصاد أعاها خطرا ، واشدها ضررا وتعقيدا .

ولم يقف عند هذا الحد بل كان ينادى بمبدأ ظنه الناس دينيا ، قائلا : " أن اقتراف الخطيئة مقدمة ضرورية لالتماس المغفرة ، ومن هنا صاحبته النساء من جميع الطبقات ، ولازمته أينما توجه ، بل انه جاهر بتقبيلهن فى الشوارع العامة ، والاشتراك فى الحفلات الماجنة وأسرف فى الدعارة ، ومع ذلك فلم ينتقص من منزلته الكهنوتية (١) ، ولم ينزل به أى لون من العقاب على ما اقترفت يداه .

لقد لجأت الكنيسة فى العصور الوسطى لاستخدام كل وسيلة ممكنة ، أو غير ممكنة ، لتعقب هؤلاء المفكرين ، فكانت النتائج سيئة للغاية على الفكر والتقدم والحضارة ، ولولا أن الحضارة الاسلامية قد بسطت يديها ، وامتدت من الأندلس الى أوربا فى غياهب الظلام ،

---

(١) كامنكا — الأسس الأخلاقية للماركسية ص ٤٨ ومابعدها — ترجمة مجاهد عبد المنعم .

فتمسح دمعة عين باكية ، وتهدهد بكاء باحث يرى فى أعماقه فكـــرة للنور لكنها تحترق فى داخله — ماظهرت حضارة فى أوربا أبدا .

ويؤكد كثير من الباحثين أن الحضارة الاسلامية التى غـــزت أوربا لو قدر لها الاستمرار فترة أخرى من الزمان لنقلت أوربا سريعـــا ، ولما وقعت فى قرون الجهالة والعصور الوسطى فيقول : " لولا انتصـــار جيش كارل مارتل الهمجى على تقدم المسلمين فى أوربا لما وقعت فرنسا فى ظلمات القرون الوسطى ، ولما أصيبت بفظائعها ، ولا كابـــوس المذابح الأهلية الناشـئة عن التعصب الدينى والمذهبى ....

ولولا ذلك الانتصار البربرى على المسلمين لنجت أسبانيا مـــن وصمة محاكم التفتيش ، ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون " (١) اذن حين تلاشت الحضارة الاسلامية فى فرنسا حلت العصور المظلمـــة ونال الكهنوت من حريات الناس وثقافاتهم كل منال ، حتى بات من المؤكد أن السوط الجديد هو الذى يفتش الضمائر ويكشف السرائر ، بعيدا عن ميدان الجدل ، والأخذ بالحجة والمقارعة بالدليل بغية الوصول للبرهان .

---

(١) أنور الجندى — الاسلام على مشارف القرن الخامس عشر ص ٤ مطبعة زهران ١٩٧٣م .

لقد نصبوا انفسهم آلهة ، لكنهم هبطوا الى ما هو اقل من المستوى ، وان كان يشاركونهم سوء القصد فيهم ، مع عدم حسن الظن حكى المرحوم عبد الرحمن عزام أن احد الآلهة البشرية من زنوج النوبة امتنع عن انزال الأمطار ، فشكته الرعية لموظف الحكومة الذى أمر بحبسه — رغم أنه الاله — لكنه — الكجور الاله البشرى — طلب من الحاكم أن يطلق سراحه فيأتيهم بالمطر بسرعة ، وفعلا بمجرد أن انطلق من الحبس ، وسار بالشعب نحو الجبل ، حتى هطلت الأمطار غزيرة فهم لايشكون فى قدرته ، ولايظنون به العجز ، وانما يظنون به القصد السىء (١) وهى نفس المشاعر التى تعيش داخل أفئدة المسيحيين على مر الأيام .

من ثم بدأت حركات التنوير فى التكوين ، الذى كان فى الخفاء أول الأمر ، حتى كانوا يهاجمون الكنيسة تحت أسماء مستعارة فيكتبون أبحاثهم العلمية مذيلة بأسماء حركية قد تكون جزءاً من البحث نفسه ، وهو الذى امتد فيما بعد حتى صارت براءة الاختراع (٢) يقرن فيها اسم

---

(١) الاستاذ عبد الرحمن عزام — الرسالة الخالدة ص ٢٠ ط المجلس الأعلى ١٩٦٤م .

(٢) هى التى يسجل فيها نوع البحث واسم الباحث وموقعه العلمى وسائر البيانات الخاصة به ، وفى الوقت الحاضر ظهر مصطلح رقم الايداع ليحفظ للمؤلف حقه فى مؤلفاته كما ظهرت بواكير قانونية لحفظ هذا الحق منها قانون حق الانتاج الفكرى وغيراها من القوانين .

البحث باسم المؤلف ، ولو كان بالحروف الأولى من اسمه ، ثم ينتهـــى الى المواجهة العلنية*

بيد أن حركات التنوير فى أوربا كانت لها أهداف منها :

(١) اظهار اعتماد الكنيسة على الفكر الخاطىء ، وبيان أن أغلبه مـــن وحى الأساطير القديمة التى ترجمت من اليونانية الى المسيحية .

(٢) ابراز جهل القائمين على الدين فى الكنيسة ، وفرضهم آراءهـــم لانصوص الكتاب المقدس .

(٣) التركيز على تبنى الكنيسة الفكر الأرسطى وهو مما لاوجود له فـــى الكتاب المقدس ، بل ان اله أرسطو اله فلسفى عقلى بينما الـــه المسيح اله روحى .

(٤) كشف السلوكيات المنحرفة التى وقع فيها رجال الكنيسة ، مع ضيق الأفق الذى يعيشون فيه ، وخلطهم بين الكتاب المقدس وأفكارهم اللاهوتية .

(٥) التركيز على أن الرفض لاينصب على الكتاب المقدس ، وانما علـــى الفكر غير السوى الذى صنعه أهل الكهنوت .

ثم كانت غاية الحركات التنويرية تركز على :

(١) اسقاط هيبة رجال الكنيسة من النفوس(١) .

مادامت الكنيسة قد فرضت سلطانا زائفا على النفوس ، فاذا انكشف هذا السلطان الذى لا أساس له ، فحتما سيختفى وتنتهى معه تلـــك الهيبة ، ويزول الخوف من القلوب التى باتت ترقص فى صدور أصحابهـــا فزعا ، ثم أن اسقاط هيبة رجال الدين الكنسى من النفوس يتبعه الاعلان الضرورى عن الحاجة لاعادة النظر مرات كثيرة فى الأسس التى تعتمـــد عليها الكنيسة ، سواء كانت تلك الأصول دينية ، أو علمية .

وكان من جراء ذلك أن ظهرت اتجاهات نقدية لكتاب العهـــد القديم والجديد ، والشروح التى لحقت بهما (٢)وقوى هذا الاتجاه حتى عرف رواده باسم أصحاب النقد العصرى للكتب المقدسة فى ضوء المعـــارف الحديثة ، ومن هنا بات الأمر واضحا ، وأن عصر النهضة أمر واقع لامحالة وأن دفاعات الكنيسة التى تقيمها ضد النقد العصرى لن تتمكن مـــن هزيمتها ، كما تأكد أن الانطلاقة الوليدة تعتمد على أسس لايمكـــن للكنيسة أن تنال منها ، أو تسقطها .

(١) كان ذلك من الغايات الأصلية لحركات التنوير فى مواجهة الحركـات النقدية التى قادها بعض الكلاسيكيين فى أوربا .
(٢) أغلب هذه النقودات كانت شفوية ، وماطبع فيها كان فيما بعد .

من ثم لا يأخذنا العجب حينما نرى ديكارت يعمل على توهيـــن المكانة الكنسية من النفوس ، لكن بطريقة الفيلسوف الذى يعرف كيـــف ينفذ الى غرضه دون أن يقع فى المساءلة المستوجبة نوعا من العقاب، وآية ذلك أن ديكارت ألف كتابه التأملات(١) قوض فيه دعائم الدين الكنســى، ومع هذا أهدى الكتاب الى علماء كلية اللاهوت الدينى ، وجعل الاهداء فى صدر الكتاب حتى ينشغلوا بالاصدار عن ما فى الكتاب ، وقد فعل .

كما أنه لغة حوارية ، ومصطلحات لم تكن مطروحة على الفكر الكنسى ورغم تهكمه بالفكر اللاهوتى المسيحى ، وتندره بمجرياته ، ونعيه باللائمة الفعليـة على استمراره — مستخدما أسلوب الرمز ، وطريقة التعميـــة ، والاتجاه نحو العمق الفلسفى بدل التسطح الفكرى ، والدوران فـــى الهامشية الفلسفية (٢) . فلم يفعل ذلك فى كتابه العالم الطبيعى مولذا أوصى بعدم نشره الا بعد موته ، وهو ما تحقق فعلا ، اذ لم ينشـــر الكتاب الا بعد موته (٣) .

---

(١) قام بترجمته والتقديم له ، مع تلخيص جيد د / عثمان أمين ، وعلق على كل تأمل منها .

(٢) ونفس الاتجاه اصطنعه مع كتابه : مقال فى المنهج . قام بترجمتـه وتوضيح بعض مسائله المرحوم د / محمود الخضرى .

(٣) ينظر كتابنا خواطر حثيثة فى الفلسفة الحديثة .

(٢) احلال المصطلحات العلمية محل مفردات الفلسفة :

أجل هدف التنويريون الى حذف المصطلحات التى عاشت فى رحاب العصور الوسطى ، بحيث تكون الجديدة هى المعول عليه ، وتصير لغة التعامل ، أما الأخرى فيمكن أن تقف فى مكانها المعهود بجوار الآثار والمزارات ، لامكان لها الا الذكرى ، ومع مرور الأيام تدخل دائرة النسيان ، وتحل مكانها لغة العلم ، ومصطلحات الفكر التى تقنع العقل والقلب معا .

وقد نجح " بيتر راموس " فى اقناع الرأى العام بفلسفة يصوغها على نمط معين ، جعل هدفها الأول هو " تزويد العلمانيين بالأدوات العقلية التى يقوضون بها امتيازات القساوسة ، وضرورة القرابين وقوة الكنائس الرسمية " (١) وربما بلغوا فى الهدف درجة سمحت لهم باثبات انتصارهم على الكهنة فى المسألة ذاتها .

كما أن بعض المؤسسات المالية ساهمت فى انتشار الفكر التحريرى كنوع من تكوين رأى مضاد للاتجاه الكهنوتى ، وبات من المؤكد وجود نوع من التعاون بين هذه المؤسسات وأولئك التنويريين حتى انقلبت

---

(١) هربرت شنيدر — تاريخ الفلسفة الأمريكية ص ١٣ ترجمة د / محمد فتحى الشنيطى ط مكتبة النهضة المصرية .

الأحوال — فيما بعد — وصارت مهاجمة رجال الكنيسة أمرا عاديا ، بل زاد الأمر عن مجرد النقد العنيف ، الى النقد الساخر المتدني البعيد عن الموضوعية أحيانا كثيرة .

اذن مهاجمة الكنيسة صارت أمرا عاديا ، وراحت مصطلحاتها تنزوى فى رؤوس الكهنة ، وتعتصم بجدرانات الكنائس ، أو تغلف فى أوراق مطوية لاتصلح الا كأحجية فقدت قيمتها المعنوية ، مما حدا ببعض القسس الى اصطناع منهج جدلى يواكب العصر الذى يعيشون فيه .

بل ان العقيدة الدينية — عندهم — تحولوا بها من الحقيقة الى المجاز ، وهو الأمر الذى لم يكن له وجود فى ظل الكنيسة وتعاليمها من قبل وبالتالى فان الظاهرة التنويرية فى أوربا قد فرضت " وجودها على مشاعر الناس وأعصابهم وآمالهم ، فأثقلت حاضرهم عن التقدم ، وصورت مستقبلهم حافلا بالتشوهات المخيفة " (١) ان هم استمروا على الطريق الذى تقودهم فيه الكنيسة ورجالها .

لكن لم تفلح تلك المحاولات الفردية التى قامت بها الكنيسة فى الايقاع بالتنويريين أو هزيمتهم على لغة العلم ، وانما عادوا الى

(١) الدكتور / رفقى زاهر — عصر القلق ص ٣ ط ١ دار التضامن ١٩٨٨م

الميدان وقد خفضوا الجناح ، ونكسوا الرؤس ، ثم لجأوا الى السوط والجلاد ، وأحكام الكفر والايمان ، حتى بان عجزهم ، وكان ذلك من الأسباب التى ضاعفت خصومهم ، وازادت فى عداوتهم .

وبالتالى راح الكل يهاجم الكنيسة ورجالها ، وقد استخدم كل طريقته ، وبالشكل الذى سمحت به امكانياته ، من هنا فقد الكهنوتيون قدرتهم على مواصلة المعركة ، ولجأوا الى تفسير الأناجيل بقرارات من الكنيسة ، وفهم اللاهوتيين ، كما راحوا يفسرون أقوال اللاهوتيين الغامضة بالأكثر منها غموضا ، مما كان له تأثيره الكبير على مجريات الأمور التى لم تكن لصالح الكنيسة .

ولم تتمكن السلطة الدينية من مواجهة التيار التنويرى بالمنطق والبرهان ، وانما عملت على بسط نفوذها من خلال السوط والسلطان ، كالشأن مع كل سلطة دينية لايمكنها الدفاع عن نفسها فى مواجهة خصومها فتلجأ للسلطان حتى يكون هو اليد العليا التى تخضع جميع الرقاب لسلطانها .

من ثم فقد العامة ثقتهم فى رجال الكهنوت ، لما لاحظوه فيهم من إستبداد السلطة ، بل واستبدادها ، مع عدم قدرة رجال

الكهنوت على واجبهم بالاقناع ، بل بات من المؤكد أنهم صاروا أعجز الناس عن فهم الانجيل الذى ينسبون أنفسهم لديانته ، بجانب عدم التزامهم التعاليم التى يدعون اليها ·

بيد أن الحركات التنويرية نالت من الناس بعض القبول ، كما وقع لها من القسس النكران ، لكن اتسعت ساحتها لدى الرأى العام وراحت تستولى على مواقع أكثر مما كان لها من ذى قبل ، بل انها فتحت أبوابا كانت الكنيسة قد أوصدتها أمامها حتى تحولت السلطة القيادية الى الفلسفة وليس للكنيسة ، وكان المفروض أن تنعكس الأمور ·

وربما لانحتاج مقارنة أكثر من القول بأن الفلسفة راحت تغزو المواقع القيادية ، وتفرش أرض الواقع بطبقة فكرية يمكنها التعامل مع كافة الأنواء ، وفى ظل كل الأجواء ، حتى ظهرت لها آثار ايجابية بينما الفكر الكنسى قابع فى رؤس القسس لايبرحها ، أو متكئ بين الأحجار الجامدة التى حفلت بالكرادلة الذين وقفوا ضد كل جديد ، وكذلك وقفت بهم أمورهم عند هذا الحد الأدنى من التفكير ·

فاذا أضفت الى هذا ما كانت الفلسفة من نشاط على دفع الرأى العام الى البحث عنه ، والتعرف على هويته ، فاذا هو وليد

فلسفى قويت مع الأيام شوكته ، وعلت كلمته ، وراحت حلوله المباشرة لكافة المشكلات الحياتية تشد أزر الفلاسفة ، وتقوى فيهم العضد حتى أن بعض المؤسسات المالية (١) اصطنعت من عندها نظاما يكفل حياة هادئة لأولئك الفلاسفة حتى يتمكنوا من البحث أكثر من ذى قبل بغية الوصول الى أعلى مستوى من الاجادة بحيث لاتوجد مشكلة الا ويكون لها عند الفلاسفة أكثر من حل فورى ، وقد نجحت الفلسفة بآرائها الجريئة ، بينما أخفقت الكنيسة بآرائها العقيمة ، وليس هناك مفكر يستطيع أن يمنع نفسه من أن يغبط الفلسفة على ما جنته من فائدة وما نعمت به من حرية " (٢) .

دور الرهبان فى تنشيط الحركات التنويرية :

لقد ساهمت الكنيسة فى خداع الفكر ابان عصور الظلام ، حين فرضت الجهل واعتبرته قانونا عاما يجب تطبيقه ، ثم جاء دور الرهبان الذين ارادوا الارتداد الى الخلف وتقليد الانسان البدائى فى كل

---

(١) مؤسسة فرانكلين .
(٢) هربرت شنيدر — تاريخ الفلسفة الأمريكية ص ٣٢ .

تصرفاته ، ظانين أن الانسلاخ من المشاركة فى الحياة العامة هو أقصى أماني المسيح ، وما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون .[1]

من ثم " فقد كان بعض الرهبان لا يكتسون دائما ، وانما يتسترون بشعرهم الطويل ، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ، وكان معظمهم يسكن مغارات السباع والآبار والمقابر ، ويأكل الكلأ والحشيش وكانوا يعدون نظافة الجسم منافية لطهارة الروح ..

بل وصل بهم الحال الى اعتبار أن غسل الاعضاء وتنظيفها انما يمثل اثما يستوجب التوبة والاعتذار ، وكانوا يتصورون الزهد هو الايغال فى النجاسة ، وأزهد الناس عندهم هو أبعدهم عن الطهارة ، وأوغلهم فى النجاسات والدنس .

وكان الرهبان يتجولون فى البلاد ، ويختطفون الأطفال من أحضان أمهاتهم ... بغرض تنشئتهم على الرهبنة الجافة ، والتقشف الشاذ ، ومع هذا فكانوا يمارسون كل أنواع الكبت على كل مستوياتها ، من حرمان ، الى قسوة ، الى خروج عن المألوف .[2]

بل انهم سقطوا فى انحرافات حطت العديد من التناقضات ، فمثلا كانوا فى الظاهر يعتبرون ظل المرأة رجسا يجب الفرار منه ، كما أن

(١) سورة الزخرف " الاية ٢٠

(٢) ابو الحسن الندوى — ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص١٦٨ وما بعدها .

الحديث معها تحبط صالح الأعمال ، أما فى الباطن فكانوا يمارسون البغاء والقوادة حتى مع نجوم السينما ، وبنات الليل اللاتى تمرشن عن هذه العلاقات المشبوهه ، فلما أذيعت على القوم انخفضت أسهم الرهبان ، ونزلت درجاتهم وبات أمرهم قلقا ، وحياتهم تمثل نوعا من الجهل المطلق .

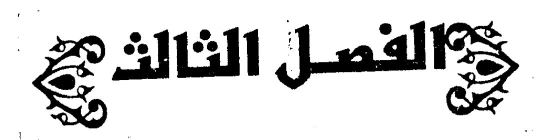
وفى المقابل كانت الانطلاقات العلمية قد بدأت تؤتى ثمارها ، ويرفع العلماء من قدرها .. أجل ، كانت تلك الانطلاقات مركزه وذات تأثير فعال ، ومع هذا انحرفت الكنيسه ولم تحاول مقارعة العلماء ، أو امتلاك ناصية العلم ، أو سلكت طريق المعرفة الصحيحة .

ولكنها احترقت الكهانه ، واحتكرت المعرفة ، وفرضت على الناس القهر والارهاب واضطهدت العلماء ، كما شردتهم وقتلتهم ، واقامت لهم محاكم التفتيش ، وصادرت فيهم حرية الفكر ، وقتلت الاعتداد بالرأى ، والتحقت المعارف المختلفه ، وافترست الأفكار الهيئه فانتهى بها الأمرالى :

١ — عداوة العلم والعلماء
٢ — فرض الجهل والافكار الرجعيه
٣ — التمسك بأن الدين والعلم عدوان

من ثم تقدم العلم فابتكر ، واخترع ، وأنشأ حضارة بعيده كل البعد

عن الله ومنهجه وقوانينه ، وفى ذات الوقت تقهقرت الكنيسة وارتد بهـا ومنها ، فحرمت من ميزة السبق ، واخفقت تخبط رأسها بكفيها ، وما هم على هدى قاموا ، ولا طريق قويم سلكوا ... بل كانت افعالهم من الدوافع القوية لظهور الافكار العلمية ، والحركات التنويرية كرد فعـل لكل هذه وتلك .



الفصل الثالث

اطروحات فى طريق الفكر الفلسفى

منذ عصر النهضة الأوربية الى بداية القرن العشرين

ليس بغريب على العقل الانسانى أن يجد فى الفلسفة ، وأن يسعى بغرض تحرير فلسفة خاصة تواكب العصر وتعمل على الوفاء بمتطلباته الفكرية ، وانما الغريب أن يقف العقل الانسانى عند عتبات يتصور أنها أبدية ولا حيلة له فى القفز فوقها أو تسلق الأسوار المحيطة بها ، بينما هى عقبات صنعها له وهمه ، ونمى مشاعر العداء بينهما خياله .

على أن القضايا الفكرية التى تحتاج معالجة ، وتقتضى جدلا ومحاورة ، إنما هى القضايا التى نجد الحاجة اليها قائمة على قواعد شرعية فى ديننا الحنيف ، يقف العقل منها موقفا قائما على قواعد علمية ، يظنها لا تبلى رغم حداثتها ، ولا تبيد رغم ضعفها وتهافتها .

وقد سلف القول بأنها قضايا فكرية ، وفى نفس الوقت موضوعاتها فلسفية ، ومع هذا فربما وجدت لها الحلول السليمة على الناحية الشرعية بالشكل الذى سلكه الأقدمون من بنى ديننا الحنيف (1)

---

(1) أبناء ديننا هم المفكرون المسلمون وكانت لهم الصدارة ، لأن الاسلام أهم وأكبر وأعم ، وفيهم أتيه وأفخر ، والاسلام هو الجنس الذى ينطوى تحته كل المسلمين ، ولذا قيل جنسية المسلم ديانته .

وجنسنا العربى[1] ، أو ديننا مع التجانس الفكرى ، والتراحم الذى وثقت عراه بيننا . وهذا كله ليس بغريب ، بل هو واجب أكيد .

أما الغريب بحق فهو أن يتحرك السابقون من علمائنا نحو الهدف ، وربما بلغوا غايته ، أو تربعوا على قمته حيث عالجوا أكثر القضايا خطورة ، وأكبر المشكلات صعوبة ، مع ظروف العصر التى عاشوها ، من غير أن ينالهم اليأس ، أو يتسلل الى جوانحهم شئ من القنوط أو الاستدارة للخلف ، فما ضعفوا وما استكانوا وكانوا خير سلف .

ثم يأتى الخلف منا ، فيقع لهم التقهقر وتدب فيهم روح الكسل ، بل وتفتح الدنيا جوانبها الزائفة لهم .. حتى توقعهم فى حبائلها ، ثم تتغلب عليهم ، فيفلت حبل التفكير منهم ، وتتهاوى قضاياهم الميتافيزيقية حتى هبط أمرهم الى القاع الذى يصعب الخروج منه ، بعد أن كانوا فوق القمة التى يصعب الوصول اليها وما ذلك الا لأنهم لم يأخذوا بالأسباب التى اصطنعها الأولون ، أو يتسلحوا بالعلم الذى انكب عليه الأقدمون .

(١) أبناء جنسنا هم العرب الأماجد الذين كانت لهم حضارة سمت بالأميين وأعتبرت بحق من النماذج الفريدة ، فكانوا هداة الأمم ، وحداة القافلة الحائرة فى الظلم ـ راجع كتابنا حلف الفضول عند العرب وأثره فى العصر الحديث ط/صنعاء بالأحمدية بالشرقية .

والمتابع للحركة الفكرية فى الشرق والغرب على السواء، ربما نظر بعين الناقد فوجد أمشاجا مختلفة وألوانا لا تجمع بينها جامعة ، لكنه فى النهاية مضطر الى التعرف عليها ، والتعامل معها وحينئذ تبدو أمامه مسألتان إذا لم منهما الأطراف ظهرت الخوافى ، والمسألتان هما :

الأولى : نهضة فكرية فى جانبها المادى ، بكل ما تعنيه كلمة المادى ، ومن كافة الجوانب المتاحة للكلمة .

الثانيه : استمرار الحركة الفكرية الروحية ذات الطابع الدينى الايمانى ، البعيدة عن اتجاهات الفكر المادى ، وهى لا تلتفت الى الماديات الا بقدر ما يعين على امر الدنيا من غاية ، أو يوصل للآخرة باعتبارها بداية النهاية .

ولكل من المسألتين أنصار وخصوم ، والذى يحاول ضبط الايقاعات الفكرية ، أو رصد هذه الظواهر بدقة ربما أضناه البحث وتفلتت منه الحيلة ، لكن عشاق المعرفة ، طلاب الحقيقة لا يعرفون الملل ، بل ربما وقعوا فى حب جارف ، وغرام لا ينقطع ، وحينئذ تزداد علاقتهم بالبحث لا من حيث المسائل الفكرية وانما من ناحية

التعرف على أدلة الأنصار ، وشبهات الخصوم ، ومحاولة الموازنة بين أدلة هؤلاء ، وشبهات أولئك .

على أن بعض الدارسين قد يبلغ فى المسألة شأوا أو ينال منها منزلة ، وربما تهاوى معه أمله وسقط من عال ما كان يرتجيه ، أما لماذا ؟ فلأن الفكر الانسانى حلقات متواصلة . وجهود لم تنقطع ، انها سلسلة مترابطة ، ولبنات متراصة يكمل لاحقها السابق ، كما يمهد السابق فيها للاحقه .

بيد أن القضايا التى يمكن طرحها فى هذا الميدان - لا تخرج عن أربع قضايا أصلية ، ربما تفرع عن كل منها قضايا فرعية تكملها ، أو تشيد بها . وهذه القضايا التى سنعرض لها فى هذا الكتاب هى :

١ـ الفلسفة فى العصور الوسطى (١)

٢ـ الفلسفة فى عصر النهضة الاوربية الحديثة (٢)

---

(١) الفلسفة فى العصور الوسطى : قد يقصد بها فلسفة المدرسيين من آباء الكنيسة ، وقد يقصد الفكر الحر فى مواجهة الفكر الدينى فى المسيحية .

(٢) يبدأ فى أوربا من روجر بيكون . ويقف مع فرنسيس بيكون ثم يتجاوزه الى كانت وأضرابه .

٣- الفلسفة الحديثة (١)

٤- الفلسفة المعاصرة (٢)

والملاحظ أن بعض هذه الفلسفات كانت رد فعل ايجابي أو سلبي لمحاولة سيطرة فلسفة على الأخريات في عصر من العصور وأنه ذلك وجود فكرتين تكملان بعضهما في الواقع ، على الظن بتضادهما في اللفظ اللغوى ، وهما :

١- فكرة فرض الاتجاه .

٢- فكرة رفض الاتجاه .

واتخذ كل عصر سمة تميزه من غيره ، سواء كانت هذه السمة من باب الدعاوى الفضفاضة ، أو الحقوق الدعاة أو كانت من قبيل الظنون المتوقعة ، فمثلا مع مطالع عصر النهضة ظهر عدو جديد للانسان تمثل في الآلة التى صنعها الانسان فقاسمته لقمة العيش ، وجعلت أجرها أعلى من أجره ، بل وفرضت عليه قبول أدنى الأجور باعتبارها اتجاها جديدا في دنيا الكشف العلمى .

(١) اتسمت بالخروج على التقليد والتزام الجانب العلمى المعلمى دون نظر الى موافقة النقل للقضايا الفعلية أو مخالفتها له .

(٢) هى التى تبدأ مع مطالع القرن العشرين ، وما زالت الى الآن

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر انقلبت الأوضاع وعاد النظر من جديد للانسان باعتباره أعلى قيمة من الآلة، وأكثر تفاعلا مع الأحداث ، والأقدر على ترجمة الأسس الذهنية فى الأفكار التى تملأ رأسه الى واقع معاش يتحقق له فيه السيطرة على الآلة والتحديث فيها .

كما أن الحركة العاقلة بدأت فى رفض فكرة الاستعمار باعتباره استعمار و فرضته باعتباره نوعا من الثقافة وشيئا من التقدم العلمى ، وجنبا إلى جنب — ظهرت فكرة الاستعمار الثقافى — مع دعوى رسالة الجنس الأبيض التى كان يتذرع بها الاستعماريون البريطانيون ، ودعوى التمدين التى كان يتذرع بها الفرنسيون فظهرت كذلك دعوى "ولهلم الثانى" قيصر ألمانيا لقيادة العالم ونشر الثقافة فيه (١) .

على أن القضايا المطروحة ههنا يمكن تناولها بشكل أوسع، وتحليل أكبر متى انحصر البحث فيها ، لكن هذا يمثل صعوبة كبيرة ، لأن كل قضية منها تحركت فى أحشائها العديد من الأجندة التى نسبت اليها ، لأن فلسفة العصور الوسطى فعلا كان فيها :

(١) جواهر لال نهرو — لمحات من تاريخ العالم ص ٦١٣ .

١ـ فلسفة أباء الكنيسة (١)

٢ـ فلسفة المدرسيين (٢)

٣ـ فلسفة رجال الدين حتى قال كيركجورد : ان المسيحية هى التعبير الحقيقى عن القسوة العارية من كل معنى للانسانية (٣)

٤ـ الفلسفة التقليدية .

٥ـ فلسفة الهمس فى الخفاء وهى التى حاول القيام بها مفكـرون لم يتح لهم التعبير عنها فى العلن ، وانما أنتهوا من وضـع قواعدها ، ثم تركوا وصاياهم بنشرها بعد الوفاة خشيـة أن تعلم الكنيسة بهم فتصدر قراراتها بتكفيرهم أو تعذيبهـم وإلقائهم فى غياهب السجون .

وكذلك الفلسفة فى عصر النهضة ، فقد حملت أراء كثيرة حيث نمـا تحت جناحيها كل مما يأتى :

---

(١) وهى الفلسفة التى سيطر فيها أباء الكنيسة على المجريـات الفكرية .. فصارت الفلسفة خادمة للدين وأداة طبيعية فـى ايدى أصحاب السلطة الكهنوتية .

(٢) حيث كانت الفلسفة مجرد أفكار فى الرؤس ، لامكان لها الا ـ المدارس التى تتناولها أما الواقع الخارجى فلا ، انه لا علاقـة لها بالواقع ، لأنها أنزوت برجالها بعيدا عن سلطان الكنيسة.

(٣) كيركجورد ـ وجهة نظر شارحه لمؤلفاتى ص٢١٣ ترجمة ب.هـ تهسو: فندية ١٩٤٥

١ـ الفلسفة العملية الطبيعية .

٢ـ الفلسفة الفلكية .

٣ـ الفلسفة الواقعية التى تعمل فى الواقع العملى ، لخدمة الحياة العملية ، بعيدا عن الاتجاه النظرى الذى كانت له السيطرة فى الزمن الذى مضى من عصر الأغريق حتى مطالع عصر النهضة ، اللهم الا فترات قليلة لم يقدر للفلاسفة أن ينطلقوا بفلسفتهم الى حيز التطبيق العملى .

اما الفلسفة الحديثة فقد حبلت باتجاهات عديدة ، منها :

١ـ فلسفات علمية تحدثت باسم العلم (١)

٢ـ الفلسفة التجريبية (٢)

٣ـ الفلسفة النقدية (٣)

---

(١) ورواد هذه الفلسفة هم رجال الكشوف العلمية ومن سار على دربهم . من أمثال جاليليو .

(٢) من أمثال فرنسيس بيكون ، ومن قبله روجر بيكون ، وعرفت باسم التجريبية الأنجليزية

(٣) وكان على رأسها عمانويل كانت صاحب الميتافيزيقا النقدية والمثالية الأخلاقية .

٤ـ الفلسفة المثالية (١)

٥ـ الوضعية المنطقية (٢)

٦ـ الوضعية الطبيعية (٣)

٧ـ الوجودية (٤)

٨ـ الفلسفة الانسانيه وهى لا تختص بنظام فرعى للأشياء ، وانما هى خط سير الانسان كاملا مكتملا (٥)

على أن هذه الفلسفات لم تكن وحدها نتاج الفكر الفلسفى فى العصر الحديث ، وانما هى أبرز الاتجاهات فقط ، فنحن

---

(١) هناك نوعان من المثالية احدهما بالفكرة الفلسفية ، والأخرى فى الأدب والقيم ويعنى بها الترفع عن أخلاق العوام ، وعرضت فى الأعمال الفنية كثيرا ٠

(٢) من أشهر رجالها فى اوربا ـ كوند رسيه ، فتجنشتين ، شيليك ، وأير الذى أضاف للوضعية المنطقيه التحليل المنطقى راجع د / عبد الفتاح الديدى ـ الاتجاهات المعاصرة فى الفلسفةص ٢٥٨

(٣) تقوم على تحليل الأشياء الطبيعية الى اجزاء بسيطه ، أما الوضعية المنطقية فانها تهتم بتحليل المفردات الى أولياتها والفرق بينهما واضح لمن تأمل ٠

(٤) فلسفة تقوم على أن الوجود ينحصر فى معاناة الناس والقلق ـ راجع ريجيس جوليفيه ـ المذاهب الوجوديه من كيركجور الى سارتر ص ٤٧ ترجمة فؤاد كامل ٠

(٥) د / عبد الفتاح الديدى ـ الاتجاهات المعاصره فى الفلسفة ص ١٢٦ ٠

لا نقدم احصاء لها بقدر ما نعمل على ابراز الأطروحات التى كانت سائدة حينئذ ، أقدر لها أن تظهر تحت أجنحة الفلسفة الحديثة التى سادت أوربا فترة من الزمان .

وأود الاشارة الى أن الفلسفة الاسلامية ، لم تقع ضمن دائرة هذه التقسيمات ، أما لماذا ؟ فلأن الفلسفة الاسلامية تنهل اتجاهاتها وموضوعاتها من النقل المنزل ، وهو صحيح ثابت لا يناله شىء من التغيير ، من ثم فإن الاتجاهات القائمة فى الفلسفات الأخرى لا تنطبق على الفلسفة الاسلامية .

كما أن موضوعات الفلسفة الاسلامية لم تزل تؤدى دورها على الوجه الأمثل ، متى تم استخدامها على النحو الأكمل ، وسارت بالشكل الذى يرجى منه استمرارها ، ولذا فقد أمكن استبعادها من دائرة الوصف بأنها حديثة أو معاصرة ، أو غيرها من التسميات والنعوت ، لأنها اسلامية ، وتلك خصيصة تنفرد بها عن باقى أنواع التفكير العقلى الأخرى .

فالاسلام هو المصدر الأول للفكر الاسلامى ، والقرآن هو المنبع الأصيل الذى خرجت منه نظريتا المعرفة الانسانية والمنهج

العلمى التجريبى . والذى استمد منه ابن الهيثم نظرية الضوء، وابن خلدون مفاهيمه عن قيام الحضارات ونموها وسقوطها ، وهو الذى هدى الخليل بن احمد الى قوانين اللغة والموسيقى والشعر .(١)

من ثم فان الفلسفة الاسلامية تتميز عن الفلسفات الأخرى بالمصدر الموثق على الدوام ، القائم على الصدق والتقدير لكل المواقف ، ومعالجة كافة القضايا من منظور علوى ، وارادة سامية . وقدرة عالية واحاطة شاملة بكافة الجوانب ، فلهذا سبقت غيرها وفازت عند المقارنة .

اما الفلسفة المعاصرة فقد ضمت بين ذراعيها أنواعا اخرى من الفلسفات بعضها نال جهدا ، والآخر وقع فى دائرة النسيان ، وربما تهاوى فى دياره ، أو سقط عليه جداره ، من هذه الفلسفات ما يلى :

---

(١) المستشار — أنور الجندى — الاسلام على مشارف القرن الخامس عشر ص ٢٤٥ — مطبعة زهران ١٩٧٣ ط أولى .

١ـ الفلسفة البراجمانية : ومن ابرز رجالها (١ـ وليم جيمس ٢ـ جون ديوى ـ ٣ـ تشارلز ساندر زبيرس) (١)

٢ـ الفلسفة الماركسية : ويظن دعاتها أنها تركز على دراسة الطبيعة الانسانية من خلال المركز الاجتماعى الخارجى الذى يعبر عنه نشاط الانسان نفسه (٢) ٠

٣ـ الفلسفة الديالكتيكية : (٣) وهى التى تعنى بالناحية الجدلية ومن أبرز رجالها هيجل فى القرن التاسع عشر الميلادى ٠

---

(١) تعرف باسم الفلسفة العملية ، كما تسمى مذهب الذرائع ٠يراجع البراجمانية ، وليم جيمس ٠

(٢) د روبين أوسبورن ـ الماركسية والتحليل النفس ص ٨٠ ترجمة د / سعاد الشرقاوى ط/ دار المعارف سنة ١٩٨٠٠

(٣) الفلسفة الديالكتيكية ، غير المذهب الديالكتيكى الذى سار السوفسطائية قديما فى اليونان ، ومونتانى وسانشيه فى فرنسا مع الفلسفة الحديثة ٠

٤ـ الفلسفة الجوانية[1] وهى غير الفلسفة البرانية ، وقد استعمل ابن رشد البرانى والجوانى قبل ان تعرفه الفلسفة الحديثة بقرون طويلة ، وكان برانيه والجوانى يمثلان لصطلاحات خاصة به ، لم يقدر لمن استعملوها بعده ، أن ينوهوا بأن الفيلسوف المسلم سبق له أن ابتكرها واستخدمها على الوجه الأشمل عنده ،

٥ـ العديد من الاتجاهات التى اعتبرها أصحابها فلسفات خاصة بهم بينما هى لا يمكن اعتبارها من باب الفلسفة على الناحية الفلسفية ومن حيث المصطلح الفنى ،وانما يمكن اعتبارها تيارات فكرية لا فلسفات ، أو النظر اليها على أنها نظرات فى الكون ، أو الحياة ، أو الانسان ، من ثم فلن نتناولها ههنا ، وانما سنرجئ الحديث عنها فى اعمال اخرى[2]

---

(١) راجع الجوانيه أصول عقيدة وفلسفه ثورة د / عثمان أمين وكذلك النقد الموجه لها من د / عبد الفتاح الديدى ـ الاتجاهات المعاصره فى الفلسفة ص ٣٤١ وما بعدها ،

(٢) من هذه الاتجاهات جماعة الشيطان : جماعة كابالا ، جماعات ـ الانتحار الجماعى ،، جماعة اليوم المقدس، جماعة احياء الاساطير جماعة هارى كرشنا ، وكلها فى أوربا ، وقد أنتهت بمن تعاطاها الى الهلاك، وليس بالامكان النظر اليها باعتبارها فلسفات على ما سبق التنويه به ،

تلكم هى ابرز الأطروحات الفكرية فى الميد ان الفلسفى المعاصر قدر لبعضها الاستمرار ، بينما حمل بعضها أدوات هدمه فى احشائه فلم يقدر له الاستمرار ، وثالث حاول مغالبة التيار والانتصار على العوامل المضادة وما زال يكافح .

على أنا سنركز فى هذا على قضايا بعينها هى :

١ـ القضية الاولى : فلسفة العصور الوسطى

٢ـ القضية الثانية : فلسفة عصر النهضة

٣ـ القضية الثالثة : الفلسفة الحديثة .

٤ـ القضية الرابعة : الفلسفة المعاصرة .

ولذا فانى اسميتها قضايا حبيسة ، لأنها ظلت فى صدرى تترى وبين حنايا قلبى تدور ، وكنت أقول فى نفسى : هل تدخل الفلسفة الاسلامية فى هذا النطاق ؟ فلما بحثت ودققت وجدت أمورا لم تنل حظها من الدراسة ، قصدا أو غير قصد ، لكنها فى النهاية تؤدى الى انقاص الفكر الاسلامى اكبر نصيب له فى دائرة العقل الاوربى ، وهو نوع من التعصب البغيض .

كما أن الفلسفة الاسلامية خاصة والفكر الاسلامى عامة ، يتسع

مفهومه ليشمل الفكر على كافة نواحيه ، فهو أكبر من الحديث والمعاصر ، وأوسع من النهضة بأكملها ، بل هو النهضة إن لم يكن هو الداعي اليها ، والباعث على النهضة في أعلى مراتبها وهو ما أحاول البحث عنه ، والوصول اليه ، "والحقيقة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها".



أثر الحضارة الاسلامية والعربية

في

النهضة الأوربية

سبق ذكر أن عصور الظلام شملت أوربا كلها عدا المناطق التى كان المسلمون قد وصلوا اليها ، وظلت هذه العصور المظلمة تخفى أوربا تحت جناحيها قرابة قرون ثمانية ، ثم تسلل النور الاسلامى إلى تلك المجاهل فعرفت والاماكن المظلمة فبدأت أنواره القوية تكشف غياهب تلك المجاهل حتى تحولت من بلاد مظلمة متأخرة إلى دول ذات مدنية حديثة ، وحضارة تقفز للامام .

ومن الثابت أن أية حضارة لا تقوم من ذاتها ، ولا تنبت وحدها ، وانما لابد من ثوابت تقوم عليها ، وتنطلق منها ، حتى تعد تلك الأصول هى الأسس القوية التى قامت على أكتافها تلك الحضارة ، ونمت فوقها فبلغت فيها الشأو الذى تبوأته .

كما أن الحضارات الانسانية حلقة محكمة السرد لا انقطاع فيها ولا وهن ، فاذا أمكن اعطاء المعرفة عن الفترات التى تسبق حضارة ما كانت الرومية واضحة والمعرفة كاملة والتصور دقيقاً.[1]

من ثم أمكن القول : بأن الأوربيين استفادوا حضارتهم التى قامت عليها النهضة الحديثة من إحدى الحضارات الأخرى التى كانت قائمة فى ذات الوقت ، وكان تأثيرها هو الفعال فى الحضارة الوليدة أو الذى بعثها من جديد ، فحرك منها السواكن ، ونفخ فيها من روح

(١) الاستاذ / توفيق محمد سبع - قيم حضارية فى القرآن الكريم جـ ١ ص ١٢ ط - دار المنار بالقاهره ١٩٨٤

الأمل الوثابـــــة .

ولولا تلك الاستفادة لظلت أوربا غارقة فى محيطات كادت تبتلعها ابتلاعا ، أجل " لقد أطبق على أوربا ليل حالك من القرن الخامس الى العاشر ، وكان هذا الليل يزداد ظلاما وسوادا ، فقد كانت همجية ذلك العهد أشد هولا ، وأفظع من همجية العهد القديم ، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة قديمة قد تعفنت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة ، وقضى عليها بالزوال ، وأصبحت فريسة الدمار والفوضى والخراب ".(١)

إذن تأثرت النهضة الاوربية بالحضارات الأخرى التى كان لها وجود فعلى مباشر وفعال ، وكان هذا الوجود قادرا على التأثير فى تلك البلاد الأوربية بالقدر الذى جعلها تمتص ، وترتضع ألبانه ، ثم تخرجها فيما بعد حضارة جديدة منسوبة اليها ، وهذا الفرض قائم وبالتالى يتولد عنه حكم مقبول ، هو أن النهضة الاوربية قد أثر فيها لون حضارى لم يكن موجودا بها من قبل .

على أن هذا الحكم لابد له من أمور :

الأول : التعريف بالحضارات التى كانت سائدة .

الثانى : فحص تلك الحضارات ، والتعرف على أوجه التشابه أن وجدت

---

(١) أبو الحسن الندوى ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٦٧ ، وما بعدها

الثالث : الأثر الذى تركته تلك الحضارة أو غيرها وكان له وجود يشهد له فى النهضة الحديثة .

أجل هناك حضارات تعددت لكن هذا لا يعنى أنها جميعا أثرت فى أوربا أو لم تؤثر فيها ، فهذه أحكام العجلى ، أما الدراسة المتأنية فهى التى تنتهى إلى أحكام تحوز بعض من القبول طبقا لأدلتها والحضارات التى كانت قائمة هى :

١ـ الحضارة الاغريقية :

وقد غلب على أصحابها الاستقبال بالحياة العقلية النظرية الخالصة دون توجيه ذلك التفكير إلى الحياة العملية ، بحيث لا تكون أثارها بارزة ، ثم إنهم لم يوجهوا تفكيرهم إلى خدمة الحياة العملية حتى شاع بين الناس أن الفلاسفة يعيشون فى ابراج عالية وهم لا يفكرون فى النزول عن هذه الابراج ، كما أن أفكارهم لا تقبل المعايشة مع الواقع العملى .

اذن حدث انفصال كبير بين الحياة العقلية التى يقودها المفكرون ، وبين الواقع الذى يئن من الضربات الموجهات التى وجهت اليه من خصومهم ، وقد كانوا أقوى من غيرهم تعلقا بالحياة النظرية ، والتى عادها التفكير النظرى وحده ، بعيدا عن الواقع العملى ، فليس

العلم عند هم لذات العلم مفيدا في الحياة العامة ، ولذا كانت الحضارة الاغريقية اقرب ما يكون الى التفكير النظرى وحده[1] ، أما الجانب العملى فان أثره لم يكن ليذكر .

ولا يمكن أن تكون الحياة النظرية منتجة نهضة علمية عملية حديثة من كافة جوانبها ونواحيها على النحو الذى عرفته الحضارة الأوربية

اذن لا يصح الاعتماد على أن الحضارة الاغريقية هى التى أقامت النهضة العلمية الحديثة ، لأن فاقد الشئ لا يعطيه ، وما دامت الأغريقية نظرية ، والحديثة عملية فالفرق بينهما لا يمكن التغلب عليه بأدلة مقبولـــة .

٢ـ الحضارة المصرية القديمة :

من المقرر فى الدراسات المتخصصة ذكر أن المصريين كانت لهم حضارة خاصة بهم تنسب اليهم ، وكانت لهم معارف متعددة وصلت الى الدهشة والاعجاب ومن تلك المعارف والعلوم " الفلك والهندسة والطب ، وعلم النبات ، ومعرفة المستقبل التى أخذها عنهم العالم الحديث منذ قرون طويلة ، وطورها " والدليل على تلك الحضارة

(١) د / توفيق الطويل ـ أسس الفلسفة ط ٧ ص ١٢٢ ـ ١٢٣

هو المدينة القديمة نفسها والآثار المكتشفة ، وكثرة النصوص القديمة وصور الحياة القديمة التى تزداد فى كل يوم دقة عما كانت .

فدرسوا الفلك لتحديد تقويمهم ، والفن المعمارى لأنشاء مبانيهم الدينية والدنيوية التى تتسم بطابع معمارى فيه لوحة نفيسة بجانب الدقة ... بل وضع المصريون حلولا للمعضلات الرياضية التى صادفتهم — كما كان طبهم متقدما جدا فى بعض النواحى ، وبرعوا فى علم الهندسة العملية ، حيث قاسوا وادى النيل ومقاطعاته ، ورسموا قوائم بالمدن المصرية وقاموا بأرصاد دقيقة لمعرفة الجغرافيا الطبيعية لبلدهم .

أما حضارتهم فكانت أعجوبة فى التنظيم والملائمة الفنية، والاحساس بالجمال الفنى ، وكثير من الأمور، ولكنها لم تكن بغير شك حضارة علمية[1] كما أن الجانب الاسطورى النظرى كان الغالب عليها ، والعاطفة الوجدانية كان لها التأثير الواضح حتى أن المصرى كان يفخر بها ويزهو

من أمثلة ذلك ما ذكر أن المصريين كانوا يقتنون الحيوانات حية وميتة اذ أنهم كانوا يطعمونها ويحافظون عليها باعتبارها من المظاهر الالهية ، وكذا كانت تنال عناية خاصة فيقول المصرى : " أعطيت خبزا للجائع ، وماء للظمآن ، وثيابا لمن ليس له ثياب ، واغتنيت بأبى قرد ان

(١) معجم الحضارة المصرية القديمة ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ ط ٢ النهضة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦

والصقور ، والقطط ، والكلاب المفترسه ، ودفنتها تبعا لما تقضى بـــه الطقوس الدينية ، فدهنتها بالزيت ، ولففتها فى أكفان من الكتـــان المنسوج[١] . هكذا فقد لعبت الاسطورة معهم دورا هاما يجعل الحضارة التى أقاموها غير قادرة على التأثير فى الحضارات الأخرى بنفس القـــدر المستوى .

ومن المعلوم أنه كان لدى المصريين حضارة طويلة قبل الميــــلاد واستمرت فترات طوال والادلة متعددة ، ومن سماتها أنها كانت حضارة نظرية عملية معا ، أو بمعنى آخر هى حضارة متعددة الجوانب منها :

أ ـ الجانب الروحى :

وأبرز مظاهره الحديث عن الروح ، والحساب ، والميزان ، وأمثالها وكانت الوثائق الثابتة هى من تلك الادلة ، كما أن المؤلفات التى وجدت عن المصريين القدماء تتحدث عن الحساب البدنى الأخروى ، ودقـــة الميزان الأخروى ، والفصل التام بين الطائعين والعصاة ، مما حفلت به المؤلفات التى عنيت بهذا الجانب .

ب ـ الجانب العلمى :

وقد برز ذلك فى بناء الأهرام ، وهو عمل علمى فنى معمارى مايزال

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٦

شاهداً على تلك العبقرية التى قاومت الأزمان من عشرة قرون قبل الميلاد وما تزال باقية شامخة تؤكد تمكن اصحابها من الناحية العلمية بـل وحفرت الترع وشقت الأنهار ، وأنشأت شواهد حضارية ما كان لها وجود ان لم تكن هناك حضارة ثابتة هى التى أقامتها ، أو كانت الأسس التى اعتمدت عليها .. بل شهد اليونان فى علمائه أنهم تلقوا علومهم فى الشرق ، وكانت الحضارة المصرية تطل بمعارفها عليهم .

جـ — الجانب الأخلاقى :

هذا الذى عرف لدى المصريين من احترامهم لملوكهم وأبائهم وأجدادهم ، وقد بالغوا فى هذا الحب كجزء من رد الجميل ، مع التأكيد على أن هذه الأخلاق الايجابية تفرضها حضارة قائمة أتت ثمارها فى هذا الجانب فعم نفعها وتحقق خيرها ، كما أنهم احترموا مقدساتهم فلم تنلها يد غاشية حتى امتدت صور الاحترام والتقدير لدفن الموتى حفاظا عليهم ، واحتراما لهم ، فكان التحنيط من الجانب الفنى المهنى راقيا شهد به أهل الفن والعلم .

وفى ذات الوقت فانه جانب علمى واخلاقى معا ، اذ انهم حينما لجأوا للتحنيط فقد سلكوا طريقين معا ، كل منهما يؤدى مهمة وغاية راقية عندهم ، كما أن التحنيط عملية فنية ما تزال المدارس العلمية تتناولها .

وتعمل على مدارسة الأفكار التي قامت عليها ، والنتائج التي وليتها واستمرت بعدها ٠

لكن هذه الحضارة المصريه كان طابعها المحلية بحيث لم يسمح بنشر هذه الأفكار الا في أضيق الحدود وكان الفراعين يضعون هذه المؤلفات في اماكن خاصة ، مفاتيحها بأيديهم ، ولا يمكن الاطلاع عليها أو الرجوع اليها ، الا بتصريح خاص من الفرعون نفسه ، وكان كثيرا ما يرفض تلك الطلبات التي يتقدم أصحابها بها حتى يراجعوا ما في تلك المؤلفات ، وانما كان يسمح للعلماء فقط الذين وجدوا لأنفسهم أماكن في المدارس المصريه ، بغض النظر عن جنسية طالب العلم ٠

من ثم وجدنا اقليدس ، وبطليموس ، وكثيرين غيرهم لجأوا الى الحضارة المصرية ينهلون منها ، لكن لم يكن بالامكان ترجمة الحضارة المصرية كلها الى الفكر الاوربي ، نظرا للقيود التي كانت سائدة في بلاد الفراعين ، وانما أمكن نقل بعض الأفكار من خلال مصادر تم تدريبها لهذا الغرض ، لكن لم يقدر لها النجاح حتى تقوم عليه حضارة حديثة

كما أن الفارق الزمني بين الحضارة المصرية التي وجدت قبل الميلاد بقرون واستمرت بعده ، حتى توالت عليها حضارات قصيرة الأجل لم يقدر لها الاستمرار ، والحضارة التي نشأت في عصر النهضة من

الأتساع بمكان لا يعطى فرصه الجمع بين الاراء التى ظن أصحابهـا تأثر الحضارة الحديثه بالحضارة المصرية القديمة لمجرد وجود نـوع ما من التشابه غير المؤكد .

أضف الى ما سبق تخالف ما بين الحضارة المصرية القديمه ، — والحضارة الاوربية التى غزت العالم الحديث ، وقهرت بعض اجـزاء الطبيعة ، وفى نفس الوقت فتحت بابا للبحث فى الحضارة المصريـة وتأثيرها على غيرها من الحضارات الأخرى وهذا ما أطالب به اذ لا يصلح المؤرخ لدراسة هذه الموضوعات ، وانما هى مهمة الناقد الذى يفحص الحضارات بمرآة ذات طابع خاص ، وحتما لن يجد من تأثير واضـح للحضارة المصرية على الحضارة الأوربية الحديثه كالذى سيراه من تأثيـر للحضارة الاسلامية والعربية عليها .

أجل كانت للحضارة المصرية أدوار وتأثيرات فى الحضارات المجاورة لها ، وفى ذات الأزمنة ، أما وقد تراخت الأيام وتباعدت الأماكـن ، فان هذا التأثير قد خفت حدته فى الوقت الذى ظنه البعض قائمـا وقويا ، كما أن الحضارة المصرية انتهت بمجرد دخول الاسلام اليهـا ، وهو سابق على كافة الحضارات التى يظن وجود تأثير لها فى الفكـر الأوربى .

بيد أن ما يلفت الانتباه هو عدم وجود تشابه بين الحضارة المصرية القديمة ، والفكر الأوربى الحديث ، وانما التشابه قائم بين الحضارة المصرية والحضارات المجاورة لها ، أما الحضارة الاسلامية فان قيام الفكر الاوربى عليها فيه العديد من أوجه التشابه ، بل ولايمكن اغفال هذا الدور .. ومن المؤكد أنّ حضارة أوربا مقتبسة من حضارة المسلمين ، يوم أتيحت لهم فرص التلاقى مع الشرق فى فترات من الزمن اخصبها فترة الفتح الاندلسى الاسلامى الذى جعل اوربا المتخلفة يومذاك تقطف من رياضنا وتكرع من حياضنا ، وكانت لنا المدارس والجامعات التى ارتادها لفيف من الدارسين الاوربيين ، وتلك حقيقة يقرون بها بل ويتغنون بآثارها[1] .

٣- الحضارة الصينية :

الحضارة الصينية تمتد الى ما قبل الميلاد ، وهى من الحضارات التى بدأت فى آسيا مبكرا ، وظهر على متنها جمع من المفكرين الذين كانت لهم اتجاهات علمية على درجة كبيرة من الأهمية ، وينبغى أن يقال : ان عمل موتزو فى القرن الرابع قبل الميلاد فيه نظرات منهجية صائبة ، وأنها أصبحت التصورات الاساسية الرئيسية للعلم الطبيعى

(١) الاستاذ / توفيق محمد سبع - قيم حضارية فى القرآن الكريم - عالم ما قبل القرآن جـ ١ ص ٥ ط - دار المنار ١٩٨٤ .

فى أسيا ، وأن الموهويين قد خططوا من أجل نظرية كاملة فى المنهج العلمى[١] .

ولكن الحضارة الصينية لم تكن قادرة على أن تمتد تأثيراتها الى الحضارات الأخرى حتى تنازعها أو تعمل على ان يكون لها وجود فعلى فيها ، كما لم يكن هناك فى الصين مفكرون منهجيون فى الفيزياء انما كان الفكر الصينى عبارة عن تموجات تتسق مع أنماط التفكير عندهم .

بينما كانت الانجازات العلمية العربية فى الفيزياء وديناميات الحركة حتى القرنين الحادى عشر والثانى عشر على الأقل فى الأندلس متطورة للغاية ومن أبرز الأدلة أن أبن باجة قدم نظريته فى سقوط الأجسام فكانت البداية والأساس الذى أقام عليه جاليليو نظريته فى نفس المسألة ثم طورها فيما بعد الى ما عرف باسم مبدأ القصور الذاتى[٢] .

ويذهب بعض المتعصبين الى أن " العلم الصينى كان موازيا عن قرب للانجازات العلمية الغربية ، ومن ثم فان الصين دون أى حضارة اخرى — كان من المحتمل أن تنتج العلم الحديث[٣] .

(١) توبى ا — هاف — فجر العلم الحديث ص ٦٧
(٢) المصدر السابق ص ٦٧ وما بعدها
(٣) فجر العلم الحديث ج ٢ ص ٦٢ وما بعدها

ثم تراجع فيما تصوره منقذا له من تأثير الفكر الاسلامى على الغرب ، وانتهى الى القول : من الواضح أن الصينيين تخلفوا لا عن الغرب فحسب بل عن العرب كذلك فى القرن الحادى عشر ، وفى نهاية القرن الرابع عشر فى مجالات الرياضيات والفلك ، والبصريات ، كان هناك تخلف واضح من الصين برغم مما أتيح لهم من فرص للاستفادة من الفلكيين العرب ، والنقل أو تمثل التراث الفلسفى اليونانى من خلال التبادل الدائم بين العرب والصينيين [1]

اذن حضارة الصين لم يكن لها تأثير فى النهضة الأوربية ، حيث كان الصينيون أيضا ينهلون من تراث المسلمين ، حتى قيل : ان الاتصال المباشر فى العاصمة الصينية بين بعض أشهر فلكى المسلمين فى ذلك الوقت والفلكيين الصينيين كان يقتضى من الصينيين أن يقضوا قرنين تقريبا ليترجموا كتاب الأصول لاقليدس ، وأن يستوعبوا النماذج البطلمية التى صممها الطوسى والشيرازى ، والأزدى ، وابن الشاطر ، قبل أن ينتقلوا الى النماذج الكوبرنيكية بواسطة الأوربيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر [2] .

بالتالى فان الاحتمال الوحيد الباقى هو أن النهضة الغربية

---

(١) فجر العلم الحديث جـ ٢ ص ٦٣ وما بعدها .

(٢) فجر العلم الحديث جـ ٢ ص ٦٥

الأوربية قد تأثرت بالحضارة الاسلامية والعربية ولم تكن هناك تأثيرات ذات فعالية بالنسبة للحضارات الأخرى التى كان بعضها قد انهار والآخر لا يقدم جديدا ،وهو فى طريقه للانهيار أيضا .

٤ـ الحضارة الهندية :

لم تكن الحضارة الهندية بأحسن حالا من غيرها ، اذ كان التدهور والاخلال ، والضعف السياسى والتفكك الاجتماعى ،والخشية من الوقوع تحت سلطان الأعداء المجاورين هى التى فرضت نفسها على تلك الحضارة ، كما كانت شوكة الدولة الرومانية قوية ، وتعمل على فرض سلطانها وقهر الهنود وحضارتهم معا .

بل ان الكثيرين من الهنود نزحوا الى البلاد العربية هربا من الخلافات القبلية ، والحروب الطائفية ، فلما طاب لهم بها المقام ، استدعوا أقاربهم ومن لهمهم عناية حتى يكونوا معهم ، وتعددت الهجرات التى استوطن فيها الهنود البلاد والعربية فى مختلف العصور ، واستقروا فيها ، وأغترفوا من معين الثقافة الاسلامية ،وساهموا بحظوظ مختلفه فى تنمية هذه الثقافة [1] ومن قبل كان العرب المسلمون

(١) اسماعيل العربى ـ الاسلام والتيارات الحضارية فى شبه القارة الهندية ص ٣١ ط الدار العربية للكتاب ـ بيروت ١٩٨٥ م

قد فتحوا بلاد الهند ونقلوا اليها حضارة الاسلام من خلال التجـارة والعلمـاء .

اما فى " الغرب فقد كانت الامبراطورية الرومانية قد انهارت فى الوقت الذى لف فيه أوربا رداء العصور الوسطى المظلم ، وأما بيزنطة فقد كانت تمر بأيامها الأخيرة المعدودة ، كما أن الصين قد عرفت عهودا طويلة من الاضطراب السياسى [1] ، والاجتماعى ، والثقافـى ، مما جعلها عاجزة عن التأثير فى غيرها من الدول الأخرى ، ومنهـا أوربا تعيش فى أحضان العصور الوسطى .

اذن الحضارة الهندية لم تؤثر فى النهضة الحديثة فى أوربـا كما لا يمكن نسبة النجاحات التى توالت الى الحضارة الهنديـة لأن الهند فى تلك الفترة لم تكن لها حضارة ذات تأثير مستقل ، وانمـا كانت ثقافتها وحضارتها هى النسيج الذى صنعه الاسلام بنصوصـه ورجاله ، والمثل العليا التى كانوا يقومون بها بحيث صار تأثيرهـا صدى للفكر الاسلامى نفسه على ما أشارت اليه كافة الدراسات التـى يمكن الاعتداد بها .

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٥

٥ ـ الحضارة الاسلامية :

ما من شك فى أن الحضارة الاسلامية قد قام عليها الفكـــــر الاوربى فى العصر الحديث " ويكفى أن نتذكر كتاب القانون فى الطب لابن سينا ـ المسلم ـ وقد ترجم الى اللغة اللاتينية عدة مــرات ، ودرس فى أوربا قرونا عديدة [١] ، ويتضح هذا التأثير لكتاب القانون علـى النظرية الطبية والممارسة فى أوربا من القرن الرابع عشر الى الســادس عشر [٢] ، وكذلك يمكننا أن نتذكر الرازى أبا بكر الطبيب ، فضلا عـــن الكندى والفارابى ، وابن رشد الذى كان صوتا هامسا فى أذن أوربـــا القائمة ، حيث تسلل اليها فأيقظ الغفاة ، وحرك الغافلين .

وكذلك يمكننا أن نتذكر أبا مروان عبد الملك بن زهـر وكتابه "التيسير فى المداواة والتدبير " وقد ترجم الى اللاتينية ، وطبع مع كتاب الكليات فى الطب لابن رشد " وشرح ارجوزة ابن سيناء لابن رشد فى ترجمتها اللاتينيه أيضا ، وترجم الكتاب الى العبرية ، ثم طبع باللاتينية ثمانـــى مرات بين ١٤١٠م ـ ١٥٥٤ [٣] " وكلها من الآثار الاسلامية الـــتى انضجت الفكر الاوربى الحديث على الناحية العلمية وتركت فيه أثــــارا

(١) راجع جالينوس الى غلوقن فى التأتى لشفاء الأمراض ص هـ تحقيق ـ د / محمد سليم سالم ـ الهيئة العامة للكتاب ـ ١٩٨٢م

(٢) توبى أهاف ـ فجر العلم الحديث ص ٦٧

(٣) ابن رشد ـ الكليات فى الطب ص ٥٠ ط المجلس الاعلى للثقافه ـ بمصر ١٩٨٩م

لا يمكن تجاهلها .

كما أن " العصور الوسطى " التى هى عصور ظلام فى اوربا ، هى عصور نور وازدهار وحضارة عند المسلمين ، وعصر النهضة وعصر التنوير عند الاوربيين ، هما بدايات عصور التخلف والتراجع للمسلمين ، وقد تسارع التقدم والارتقاء عند الاوربيين منذ ذلك الحين ، وتسارع التدنى والتقهقر عند المسلمين فى شتى اقطارهم"[١]

لكن ما هى الحضارة ؟

والاجابه على هذا السوءال ربما تعددت بحكم ثقافة كل من المتناولين لها ، والاتجاه الفكرى الذى دفعهم اليها من هذه التعريفات ما يلى :

١ـ التعريف المعجمى :

الحضارة هى الاقامة فى الحضر ،مع مظاهر الرقى العلمى والفنى والاجتماعى فى الحضر نفسه[٢] وهذا التعريف للحضارة بأنها الاقامه فى المدن والقرى والأمصار ، وحول منابع المياه . انما هو تعريف بالموقع المكانى ،وليس بالفكر ،ولذا كان عجز التعريف مرجحا بان يكون المراد

(١) الموتمر العام الثامن للمجلس الاعلى للشئون الاسلامية بمصر الاسلام ومستقبل الحوار الحضارى / مقال د / ناصر الدين الاسد بعنوان الاسلام والتفاعل الحضارى ص ٧٢

(٢) المعجم الموحد ص١٥٧ ط وزارة التربيه والتعليم ١٩٩٢ .

هو الرقى العلمى والفنى والاجتماعى ، وليس الحبس فى مكان معين وتشبثه به .

من ثم رأينا من يبغض الفكرة الأولى ، و هى اعتبار الحضارة اقامة فى الموضع فقط ، وقد كان العرب يبغضون الاحتباس المكانى ، ولو كان نوعا من الاقامة فى القصور الوارفة الظلال بين الخدم والرفاهية ، من ناعم الملبس ونعيم الطعام والشراب ، من ذلك أن " ميسونة بنت بحدل الكلابية البدوية ، كان قد أعجب بها معاوية فتزوجها ثم نقلها لحياة القصور والنعيم المترف ، وأنجبت له يزيد ا لكن حنينها الى البداوة كان أقوى من تقبلها للحياة الجديدة ، ان البداوة انطلاق ، وأجواء رحبة ، وعيش بسيط بعيد عن التكلف ، فلما أكثرت من اعتراضها على الحياة الوارفة ، والنعيم الحضرى ، تزوج عليها معاوية ، فطلبت منه الطلاق حتى ترحل لأهلها فى بداوتهم التى لم تنسها .

ولم يشأ معاوية حبسها فطلقها ، وعادت الى أهلها فى بواديهم المقفرة ، لكنها شعرت بعزتها التى سلبت منها وقد عادت اليها ، فرغم كونها كسيرة الجناح ، مهزومة المشاعر ، الا أن واجدانها القوى غالبها فراحت تقارن بين حياتها فى البداوة وكونها مطلقة ، وبين حياتها فى الحضر كزوجة للأمير الكبير ورئيس الدولة ، وتكشف عن حبها

الدفين للبداوة بكل ما فيها فتقول :

لَبَيْتٌ تَخْفِقُ الأَرْوَاحُ فِيهِ ∴ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرٍ مُنِيفِ
وَكَلْبٌ يَنْبَحُ الطُّرَّاقَ عَنِّي ∴ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قِطٍّ أَلُوفِ
وَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرُّ عَيْنِي ∴ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ
وَخَرْقٌ مِنْ بَنِي عَمِّي نَحِيفٍ ∴ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِلْجٍ عَنِيفِ
وَأَصْوَاتُ الرِّيَاحِ بِكُلِّ فَجٍّ ∴ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَقْرِ الدُّفُوفِ
وَأَكْلُ كُسَيْرَةٍ فِي قَعْرِ بَيْتِي ∴ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَكْلِ الرَّغِيفِ (١)
فَمَا أَبْغِي سِوَى وَطَنِي بَدِيلاً ∴ وَحَسْبِي ذَاكَ مِنْ وَطَنٍ شَرِيفِ

اذن الحضارة لم تشغلها عن وطنها ، ولم تنسها آمالها وأحلامها ، ولم تفلح فى اقتلاع جذور البداوة من قلبها لأنها حضارة صورية ، مست القشرة الخارجية من ملبس ناعم ، ولكنها لم تنل من داخلها شيئا فظلت بعيدا عنها ، ثم ودعتها غير آسفة عليها .

٢ـ التعريف الاصطلاحى :

أجل ـ مال الكثيرون الى تعريف الحضارة على نحو اصطلاحى من هذه التعاريف ما يلى :

أ ـ ابن خلدون : عرف الحضارة بعدة تعريفات منها :

= الحضارة هى: ذلك النمط من الحياة المستقرة الذى يقتضى فنونا

(١) الاستاذ / توفيق محمد سبع ـ قيم حضارية فى القرآن الكريم عالم ما قبل القرآن جـ ١ ص ٢٢ ط دار المنار بالقاهره .

من العيش والعلم والصناعة وادارة شئون الحياة والحكم ، وتوطيد حياة الدعة وأسباب الرفاهية .

= الحضارة هى المعبر عن القمة العالية للتقدم الانسانى ، وأنها غاية العمران أو نهاية عمره .[(١)]

ب — تعاريف أخرى :

= الحضارة هى الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافية ، هى مجموعة الحياة فى صورها وانماطها المادية والمعنوية[(٢)] ، اذن الحضارة ثقافة ومدنية علم ودين واجتماع ، بحيث تشمل صور الحياة جميعها فى جانبها المتقدم ، وانماطها التى تخدم مرحلة الحياة الانسانية فى كل مراحلها

= الحضارة : " هى ذلك الطور الأرقى الذى بلغه الانسان العربى عندما تجاوز حياة البداوة فاستقر وتوطن ، وأصبح حاضرا فى المكان ، الأمر الذى صحبه امتلاك قيم ونظم وعادات وأعراف وأفكار وعلوم مثلت بناءه الحضارى ".[(٣)]

لكن هذا التعريف ربما قصد به الانسان العربى وحده ، على أساس أن هناك سمات يتميز بها الانسان العربى وتكون حضارة خاصة به

(١) المصدر السابق ص ٢٩ / ٣٠
(٢) المصدر نفسه ص ٣١
(٣) د / محمد عماره — الاسلام والعروبه ص ١٣ — الهيئه المصريه العامه للكتاب ١٩٩٦ .

وكذلك الانسان المسلم تقع له حضارة تتناسب معه وتسمى حضارة اسلامية لها سماتها الخاصة ، وموضوعاتها المتميزة ، وطرق المعالجة .

وعلى هذا تكون الحضارة كالثقافة من حيث انطباقها على أقوام وأجناس بعينها ، ولكنا نركز على ان هناك فروقا بين الحضارة والثقافة وان كانت الأولى تنشأ عن الثانية بيد أنه لما كانت الافكار الانسانية يزاوج بعضها الآخر ، وتتم عملية التلقيح بشكل فعال امكن القول :
" بأن الحضارة لا يمكن اغلاق الأبواب عليها ، انها توفر فى كل من يجاورها ما دام قادرا على الأخذ بها ، والتعامل معها .

كما يمكن تعريف الحضارة بأنها عمل الانسان فى ساحة المجتمع مرتبط به رقيه وتقدمه ، والملاحظ انه ليس من اليسير تقديم تعريف للحضارة على ناحية جدية ، يكون جامعا مانعا — أما لماذا ؟
" فلأن الحضارة لا جنس لها ولا فصل — على لغة المناطقة — كما أنها ترجع الى اختلاف وجهات نظر المتناولين لتعريفها ، وثقافتهم واتجاهاتهم الفكرية ، وبالتالى فكل التعاريف التى يمكن القيام نحو الحضارة ، انما هى وجهات نظر ، وهو الذى ننوه اليه .

وآية ذلك أن المقررات التى تؤاخى الحضارة قد يقع بينها جميعا التبادل .. فمثلا كلمة :

١ـ الثقافة

٢ـ المدنية

هل يمكن فصل الحضارة ـ فى المفهوم ـ عن الثقافة ، أم يمكن فصلها عن المدنية ؟ الجواب : " أنها جميعا تتشابك ، بل وربما حلت احداها محل الأخريات ، وهو من الدلائل على ان هذه التعاريف ليست حدية بقدر ما هى وجهات نظر بعضها مستند للخبرة والآخر معتمد على مفردات اللغة ، والأخير قائم على ملاحظات متابعة بعيدة عن اللغة والخبرة من الممكن القول : بأن الحضارة تقوم على أمرين :

الأول : الثقافة ـ وهى الجانب الفكرى

الثانى : المدنية ـ وهى الجانب المادى

وربما توسع بعض الدارسين فى المسألة حتى انتهوا الى وجود فوارق لكنها فى النهاية ليست جوهرية ، وانما هى مكملات لبعضها من ذلك :

أ ـ تخصيص الثقافة بأنها : تثقيف العقل وتهذيبه بالمعارف والعلوم التى تظهر بها حتى تتكون المعرفة الحقة والنتائج الصحيحة ،وهو الجانب المعنوى من الحضارة ، ولابد فى معارفه من أن تكون

يقينية •

ب — تخصيص المدنية بانها الجانب المادى من الحضارة الذى تبدو مظاهره فى التقدم التكنولوجى ، والعمارات الشاهقة ، ووسائل النقل وما كان من هذا القبيل الذى يعد الناحية التطبيقية للثقافة •

وما الفرق بينهما — من وجهة نظرى — الا كالفرق بين الجوهر والعرض اللازم له ، وأنها فروق ذهنية فقط لا يمكن قيامها فى الواقع الخارجى ، فمثلا : التقدم المادى أليس الفكر هو الاساس الذى قام عليه ، وما الفكر الا ميدان العقل ، اذن الثقافة هى الأساس للمدنية، ثم هل يمكن التعرف على الفكر مجردا ، أم لابد من مظاهر يبدو فيها ، والا حكم عليه بأنه غير موجود ، اذن المدنية هى مظهر الثقافة،وبالتالى لا توجد ثقافة من غير مدنية ، ولا توجد مدنية من غير ثقافه ، وان أمكن الانتقال بالثقافة ، دون المدنية ، وهو الفارق الوحيد بينهما •

أجل قد يطغى جانب على الآخر وبخاصة فى العلوم التى تحتاج الى تطبيق عملى ، بحيث اذا لم يتم التطبيق العملى ظلت المسألة على وضعها القائم ، فروضا وأبحاثا نظرية مجردة ، ومن ثم لا يمكن الحكم عليها بأنها صحيحة وسليمة ما لم تدخل ميدان التطبيق العملى

حتى يمكن الحكم عليها بالصحة والفساد .

نخلص الى ما يلى : أن

١- الحضارة : هى عمل الانسان فى حدود مجتمعه ، بما يعين على رقيه وتقدمه مرتبطا ذلك العمل بالوقت الراهن ، والظرف المتاح .

٢- الثقافة : هى تهذيب العقل بالمعارف اليقينية ، والعلوم التى يظفر بها حتى ترقى مداركه ، وهى الجانب الفكرى من الحضارة .

٣- المدنية : هى التطبيق المادى للفكر فى جانبه الحضارى كانشاء العمارات واقامة المنشآت وبناء المستشفيات ومرابط الجيوش الى آخره ، وهى التى يظهر بها أثر الفكر نفسه ، وبدونها لا يمكن التعرف عليه على ناحية مضمونة النتائج .

اذن لم يبق من الفروض التى سلف التنويه اليها الا الحضارة الاسلامية والعربية ، باعتبارها المؤثر القوى فى انشاء الحضارة الاوربية الحديثة ، لكن هذا الفرض ربما احتاج الى نوع من المناقشة حتى تتأكد صحته ، أو يعزل ، أو يعدل ، أو يكون هو الثابت الأكيد وحده .

والملاحظ أن هناك امورا لابد من التركيز عليها ، منها :

١- تجاور الحضارة الاسلامية والعربية فى الاندلس لأوربا ، وهذا التجاور

الشديد جعل أنوار الحضارة الاسلامية تطل فى أوربا اشعاعات فكرية ، واجتهادات علمية وقبسات أخلاقية ، وان لم تكن قد طبقت بل ظلت اطروحات فكرية نظرية •

٢ـ القرب المكانى بين الحضارة الاسلامية والعربية جعل التجار العرب والمسلمين يعتبرون اوربا سوقا مفتوحة وبالتالى تنقلوا بين بلادها بتجاراتهم وافكارهم وقيمهم واخلاقهم •

٣ـ وجود المطابع وانتشارها فى القرن الثالث الهجرى جعل نقل الافكار من الأمور الأكثر سهولة اذ مجرد وجود كتاب واحد مع تاجر ضمن مواد ه التجارية كفيل بنقل مجموعة من الأفكار بسهولة ويسر ، سواء كانت هذه الافكار من منتجات الفكر الطبيعى أو الفلكى أو غيره وبخاصة أن هذا العصر فى الدولة الاسلامية ، كان يمثل نوعا من الترف العقلى •

ومن الثابت تاريخيا أن الحضارة الاسلامية قد احتكت منذ فجر تاريخها بحضارات مختلفة ما بين حضارة يغلب عليها الطابع الروحى كالفارسية والهندية ، واخرى يغلب عليها الطابع المادى كالحضارة اليونانية والرومانية والمصرية القديمة فأخذت من كل الحضارات ما رأته صالحا ونافعا •

وأضافت اليها وعدلت فى بعض مفاهيمها ، وتفاعلت مع كل هذه الحضارات أخذا وعطاء ، تأثيرا وتأثرا "[1] ولكن كان تأثيرها فى غيرها أقوى من تأثرها هى بغيرها ، نظرا لعمقها ودقتها مع قابليتها للتطبيق والمرونة ، عكس الأخريات لفقد انها تلك المقومات .

وكما احتكت فانتخبت من الحضارات أذكاها ونحت الهابط ، فكذلك صدرت الى جيرانها حضارتها ثقافة ومدنية ، وكانت أوربا أقرب البلدان الى الحضارة الاسلامية والعربية ، كما شعر أهلها بحاجتهم اليها فاقبلوا عليها ينهلون من عذب حياضها ، ويرشفون من نبع رحيقها .

بيد أنه كما كانت جوانبها زاكية ، فقد أقبلت أوربا عليها ، بخاصة بعد أن نبه النابهون من الاوربيين الى جمال تلك الحضارة الاسلامية والعربية ، فما تركوا منها جانبا الا قبسوا منه بقدر ما تيسر لهم ، واستطاعوا التعرف عليه ، والتفهم لما فيه .

" وقد أخذ الفكر الأوربى مفاهيم الفكر الاسلامى قاطبة ، ليس فى العلم وحده ، ولكن ايضا فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية وأنكر فضل المسلمين فيها[2] ولكنه أنكار المكابر الذى أعجزته الادلة القوية وكلما نهض

(١) الدكتور / محمد السيد الجليند — لغة الحوار بين الحضارة الاسلاميه والحضارة الغربيه ص ٢٣١ من وقائع المؤتمر الثامن للمجلس الاعلى للشئون الاسلامية سنة ١٩٩٦ .

(٢) الاستاذ / انور الجندى / الاسلام على مشارف القرن الخامس عشر ص ٢٥٠

سقط ، من ثم فانه يلجأ الى الأنكار كوسيلة لاخفاء الحقيقة ، والتـــي أعلنها كثير من أبناء جلدته •

يقول : " نصرى دى شابون : (نحن مدينون للمسلمين بـــكل ما فى حضارتنا فى العلم والفن والصناعة ، مع أننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة على جميع الشعوب العريقة ، فى الفضائل وحسبها ــ الحضارة الاسلاميه ــ أنها كانت مثالا للكمال البشرى فى مدة ثمانية قرون ، بينما كنا يومئذ مثال الهمجية ، وأنه لكذب وافتراء ما ندعيه من أن الزمان قد أختلف ، وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى [1] •

على أن الحضارة الاسلامية لم تؤثر فى شىء محدد ، وانمـــا انطلق تأثيرها فى كل مناحى الحياة ، نظرا للرصيد الضخم الذى تمثله تلك الحضارة المتكاملة ، وقد انفقت أموال ضخمة خلال العصر الذهـبى للحضارة العربية الاسلامية على التعليم وتحصيل المعرفة واذا استطلعنا مجالات المعرفة التى تركت الحضارة الاسلاميه بصماتها عليها فاننـــا نجد أول ما نجد العلوم الطبيعية (الفلك والرياضيات والطب والصيدله والبصريات وهكذا) حيث الانجازات الحضارية المتعددة [2] •

---

(١) المصدر السابق ص ٤

(٢) توبى أ• هاف ــ فجر العلم الحديث جـ ٢ ص ١٥

ومن المفيد التركيز على الجوانب التى امتصت الفكر الاسلامى والعربى ، ثم قامت بهضمه وتحويله الى مادة لها تأثير معين فى جانب محدد ، بحيث اذا اجتمعت تلك الجوانب انتهى الأمر بالفعل الى وجود عوامل كثيرة كان لها الكثير من التأثيرات فى مجرى النهضة الأوربية ، فما هى تلك الجوانب ؟ وأبرز المظاهر ؟

مظاهر تأثير الحضارة الاسلامية فى الأوربية

هناك مظاهر عديدة لهذا التأثير ، وكل منها انتهى بنا الى نتائج موكدة ، لا يجحدها الا من لم ينظر اليها النظرة السليمة ، ومن هذه المظاهر ما يلى :

١— طرق التفكير ومعالجة القضايا المطروحة ..

أجل .. انتقلت الثقافة الاسلامية والعلوم العربية " الى أوربا من مسالك الشرق والأندلس ، وجنوب ايطاليا ، ثم من بعد عن طريق آسيا الصغرى ، وكانت أفكار المسلمين وعلومهم بعيدة الأثر فى دعوة لوثر وكلفن لاصلاح المسيحية ، كما كانت بعيدة الأثر فى حرية الفكر وتطور المنهج العلمى التجريبى الذى صاغه المسلمون اساسا ، ومن خلال مناهج ابن حزم ، وابن الهيثم ، والجاحظ ،وابن خلدون التى كانت الاسس لتشكيل الفكر الغربى الحديث.(١)

(١) الاستاذ / أنور الجندى — الاسلام على مشارف القرن الخامس عشر ص٨

والمعلوم أن أنماط التفكير فى العصور الوسطى كانت منحصرة فى تصورات رجال الكنيسة ،وخيالات الرهبان الذين رجعوا بها الى الخلف ، حتى صارت اقرب ما يكون الى التفكير البدائى منه الى التفكير الحضارى .

كما أن الكنيسة بهذا قد وقعت فى عدة جرائم ، حيث صورت الدين والعلم أعداء ، ونظرت للتقدم العلمى على أنه هرطقة ، واعتبرت اضطهاد العلماء والمفكرين مما يتقرب به الى الله " ان جريمة الكنيسة التى تلتقى عندها وتنتهى اليها كل جرائمها هى أنها تفصل بين نزعتين فكريتين سويتين متكاملتين وهما : نزعة التعليم ، ونزعة العبادة ، وتنشىء بينهما عداوات لا وجود لها فى أصل الفطرة ، وتحدث بينهما صداما لا ينبغى أن يكون له وجود فى النفس السوية ، ومن ثم فان جريمتها تلك مزقت النفس الواحدة مزقا ، وأدارت داخلها الكثير من القلق والشك والاضطراب[1] " ثم دفعت المفكرين لاعتقاد صحة تلك الأفكار مع انها فى الواقع باطلة .

وقد سبق القول : بأن بعض الرهبان لجأوا الى المغارات وآبار المياه فسكنوها ، والى شعورهم فأطالوها حتى غطت أجسادهم ،والى

---

(١) الاستاذ / محمد قطب ــ المذاهب الفكرية ص ٥٠

أوراق الأشجار فأكلوها ،وإلى الاقذار والنجاسات فمارسوها لأنهم كانوا يرون النظافة الجسد يفنوعا من النجاسة .

وحينئذ لا تجد صوتا قويا يطالب بالحضارة ، وينادى بالثقافة لأن سلطان الدين الكنيسى باشكاله البدائية كان جاثما على صدور هؤلاء التعاسى الذين أوقعهم حظهم بين أنياب الجهل ، وفكى الضلالة ،فارتدوا الى العصور الأولى بسرعة مذهلة ، ولم يتقدموا للأمام خطوة واحدة ، ولم تجد صيحات النابهين فى عقولهم صدى .

بيد أنه لما دخلت الحضارة الاسلامية الى اوربا ، فقد دفعت القوم لاعادة النظر فى انماط تفكيرهم وعدم حصرها فى تصورات السذج من رجال اللاهوت ، وانما انطلقت مناهج التفكير معهم ، فى الأرض — فجاجها وشجاجها ، أبارها وتربتها ، زراعاتها صحاريها وسهولها مستويها والمعوج، حرارتها والبرودة ، أمطارها التى تسقط عليها والجفاف ، وبالتالى دفعت الحضارة الاسلامية الاوربى الى معالجة شئون حياته بما يملكه فى أقل المستويات الفكرية حتى يرقى الى اعلاها.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره ديكارت بخط يده من أنه استفاد منهجة

الشـك من المنقذ من الضلال للامام الغزالى [١] وسواء سلمت الروايـة من النقود ات الموجهة أو لم تسلم ، فان الذى لا شك فيه هو وجـود أنواع عديدة من التشابه الفكرى بين منهج الرجلين ، بحيث لا يمكـن تفسيرهـذا التشابه الا على وجه واحد هو اقتباس الأخير منهـج الأول وان لم يعلن عنه ٠

ومما لا شك فيه هو " أن علاقات الغرب الأوربى الوسيط بالشعوب الناطقة بالفارسية والتركية قليلة نسبيا ومتأخره ، أما اتصالاته وتفاعلاتـه المستمرة فكانت مع اقاليم العالم الاسلامى التى تسود ها العربية [٢] " وقـد تمت هذه الاتصالات فى وقت مبكر جدا ، مما سمح للمفكرين فى أوربـا بالتعرف على الفكر الاسلامى فى كافة نواحيه ٠

وكيف لا يقع هذا الاقتباس ومن المعروف المؤكد هو أنه فى عـام ١١٤٣ تم عمل جرىء وفى العلن هو ترجمة الكتابات الدينية الاسلاميـة الى اللاتينية برعاية بطرس الجليل رئيس دير كلونى فظهرت عدة مؤلفـات

---

(١) ذكر الباحث عثمان الكعاك التونسى انه ذهب الى باريس وفى متحف اللوفر وجد مكتبة ديكارت وأثناء تجواله فى مؤلفات ديكارت وجد نسخه من المنقذ وبمداد أحمر كتب ديكارت عند شك الغزالى يوضع هـذا فى منهجنا ، وقد صنع ديكارت كما أثبتت الدراسات الجادة/ راجع اساس التحسين والتقبيح عند الاسلاميين ومقارنته بمذهب كانـت رسالة دكتوراه أصول الدين القاهره للدكتور/ قنديل محمد قنديل ٠

(٢) شاخت وبوزورث ــ تراث الاسلام جـ ٢ ص ٣٢

اسلامية وقد ترجمت الى اللغة اللاتينية ومن هذه المؤلفات ترجمة للقرآن الكريم [١]، وان لم يكن القصد هو التعرف على القرآن الكريم باعتباره المصدر الاساسى للتشريع الاسلامى فما الغرض اذن .

وقد نمت المعرفة بالاسلام ، القائمة على البحث العلمى نموا بطيئا الى حد ما ، وغطى تأثيرها ما عرفه الناس عن الحضارة الصينية ومع ذلك فان عالم الاسلام لم يلبث ان وجد طريقه الى وعى كبار أهل الفكر فى اوربا [٢] وبالتالى استفادوا منها مناهجهم فى طرق التفكير وكذلك كيفية معالجة القضايا المطروحة على الساحة الفكرية ، حتى وجدت لديهم أنواع كثيرة من الحلول بعد أن كانت تستعصى عليهم مفرداتها .

٢ـ المنهج التجريبى :

أفرزت العقلية الاسلامية والعربية عناصر التجربة العلمية ، ووضعت القواعد الاساسية لها ، لأن المعارف الانسانية يخدم بعضها بعضا ، ويتآخى بعيدها بالقريب ، وقاصيها بالدانى ، وما فيه التجربة تزكو يقارن ما به اليقين يسود .

" فالدراسات الدينية والمدنية والانسانية والمادية والعملية من طب وهندسة وفلك وجغرافيا وطبيعة وكيمياء ونبات وحيوان وما شابه ذلك

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٢

(٢) المصدر نفسه ص ٤٦

كلها مجالات وتخصصات تتكامل وتتعاون وتشبه أن تكون انغاما حلوة في موسيقى الوجود الانساني[1] .

ولما كان الفرض العلمي لا يحتكم الا الى التجربة العملية فقد ركز العلماء المسلمون عليه فيما يتعلق بالنواحي العلمية العملية ، والمعروف أنه " اذا اختلف رجال العلم الحديث في تفسير الواقع تحاكموا الى التجربة ، يجرونها تحت ظروف وشروط محددة "[2] صارت بينهم محل اتفاق، بل هم قد تواضعوا عليها .

وقد أتى المنهج التجريبي عند المسلمين بنتائج طيبة في كافة المجالات التي تعرضوا لها ، من ثم أمكنهم وضع أسس ثابتة قوية ، قامت عليها نهضة علمية ، وحضارة متكاملة من كافة النواحي مما حدا بالغرب الى تقليدهم والأخذ بما ذهبوا اليه حتى ساروا خلفهم لا يرون سواهم .

أجل رأى المفكر الاوربي في المنهج التجريبي وسيلة لتحرير "العقل البشري من الخرافات والأوهام الدينية المضللة ، وقد لازم ميلاد العلم وظهورها — في أوربا — استشهاد تلك الكوكبة من العلماء التي اجترأت

---

(١) الدكتور / عبد الغني عوض الراجحي — الأرض والشمس في منظور الفكر الاسلامي ص ١٨ ج ١ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية العدد ٢٣٩ دراسات في الاسلام .

(٢) الدكتور / محمد احمد الغمراوي — بين الدين والعلم ص ٢٠ سلسلة الثقافة الاسلامية العدد ١٣ نوفمبر ١٩٥٩ م

فتطاولت على الكنيسة مسفهة عقائدها ...

كما أن المنهج التجريبى أظهر التناقض بين الطقوس الدينية فى المسيحية والنظريات الكنيسية التى باتت بضاعة غير قابلة للتداول وعملة لا رصيد لها ، من ثم كان المنهج التجريبى هو الذى عمل على تنوير الأذهان ، وتبديد الأوهام ، وازاحة الستار عن مغالطة العقائد الدينية – فى المسيحية وسفسطتها .(١)

وهذا المظهر يعترف به القوم أنفسهم ولا ينكرونه ، أما من تزلف إليهم أو إرتزق على حساب الغير ، فلا هم له إلا طمس هذه الآثار حتى تبدو أوربا كأنها حضارة برأسها لا أم لها ولا أب ، ظاناً أن تقدمها المذهل لا يعطى مجرد إشارة بأنها قبست من غيرها ، وما حكمه الا رأى العجول ، وهم لا يلتفت اليهم متى ضم إليه أمثاله من العجلى .

---

(١) هنرى لنك – العودة الى الايمان ص ١٨ ، ١٩ الهيئة المصرية العامه للكتاب سنة ١٩٩٦ م نوفمبر ١٩٥٩ م

٣- هناك وسائل تأثير كثيرة نذكر بعضها على سبيل الإجمال منها :

١- الفتوحات الإسلامية .

٢- المفكرون والعلماء .

٣- التجارة .

٤- تشجيع الآراء .

٥- الترجمات .

٦- طبيعة التسامح الديني في الإسلام .

٧- بروز صور عديدة في الإسلام وأسس كلها تدعو لطلب العلم وإنفاقه ، من أمثال أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد ، ومن أمثال كاتم العلم ملعون .

الى غير ذلك من الوسائل التي ما تزال آثارها بارزة وستظل كشواهد بأن الحضارة الإسلامية والعربية هي الأصل الذي قامت عليه الحضارة الأوربية .

٤- التفرقة بين معطيات العقل النظري والتجربة العملية :

أجل فرق المسلمون بين أنواع التفكير وبينوا أن منها :

١- تفكير في فهم النص الديني ، وهو الفكر الديني

٢– تفكير فى المنتج العقلى النظرى ، كالقضايا المتعلقة بالآداب من تذوق المعانى وتلمس مواطن الجمال الأدبى والارتفاع بمستوى التفكير العقلى حتى يلمس من الوجدان وترا كثير الرقة والحساسية .

٣– تفكير فى المنتج الأخلاقى .. كالحديث عن القيم ، وأنواعها وقابلية بعضها للتطور أو ثباتها الى آخر هذه القضايا التى دون فيها العلماء الكثير من المسائل ، وطرحوا حولها العديد من القضايا والأحكام .

٤– تفكير فى العقل العملى القائم على التجربة ، بعد الملاحظة والفرض والاختبار ثم الانتخاب وفى النهاية تبدو النتائج تدافع عن وجودها وتعلن أنها بلغت نوعا من اليقين .

٥– التفكير العاطفى : المتعلق بالحب والكره ، والنزوع والوجدان والتجاذب والتنافر وفى الشعر العربى الاسلامى من هذا الكثير ، اذ أن بعضه توجه بهذه العاطفة الى الجهة السامية وهى حب الله ، حتى بلغ به هذا الحب مداه ، بحيث لم يعد يرى فى الوجود سواه ، بل ربما بالغ بعضهم فى المسألة حتى داخلته المسائل واختلطت عليه وما صار

يميز بين الحابل و النابل ، وعرفوا بأصحاب العشق الالهى على اختلاف فى درجاتهم والأحكام التى تطلق عليهم .

ربما توجه بهذا الفكر العاطفى الى بنى جنسه ، يلعب بالأوتار أو يعزف أعذب الألحان حتى انه لا يجد فى أعماقه الا صدى لتلك المشاعر التى يراها صادقة لامرية فيها ، انها حديث القلب ، وأنين المشاعر ، وحنين العواطف .

٦ـ التفكير المختلط فى ظاهره ، المنظم فى داخله ، كالملاحم والقصص والبطولات التى صاحب الخيال فيها الفكر ، واحتبس فيها المشاعر حتى تخرج فى صورة أخرى غير التى بدت عليها أول أمرها .

وقد أجاد الاوربى امتصاص تلك الفوارق حتى ظهرت آثارها عليهم واضحة ، كما فعل الأديب الايطالى ، وانتهى اليجيرى [(١)] الذى كان صورة لأثر الفكر الاسلامى والحضارة الاسلامية على الحضارة الاوربيه فى هذا الجانب ، بل ان دواوين العرب والمسلمين قد ترجمت الى اللغه اللاتينيه فقام الاوربيون بارتضاع البانها ، ومحاولة رسم صورة لها ، فلما أعيتهم الحيل قاموا بالتقليد [(٢)] ، والى هنا نرجىء الحديث عن باقى المظاهر حتى يهيىء الله لنا أمرا ، ويجعله لنا ميسرا .

(١) راجع الكوميديا الالهيه باجزائها الثلاثه ـ ١ ـ المطهر ـ الجحيم ـ الفردوس ، ويقال انه قيس الجزء الاكبر منها مما حمله الفكر الاولى عن معجزتى الاسراء والمعراج لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد ترجمة للعربية وطبعتها دار المعارف المصريه ترجمة د / عثمان

(٢) راجع تراث الاسلام جـ ٢ ص القسم الاول .

الخاتمـــــة

وبعد ... عزيزى القارىء الكريم ..

ما أنا بالمستكثف السير معك ، ولا الضان بالحديث اليـــك ، ولكنها الأقدار التى تقودنا ، وترسم الخط الذى سرنا معا خطواتـــه ، وما أظنك قد قنعت ، لكن رجائى استمرارك فى الطريق فربما تصـــل غايتك قبل غيرك .

وربما تسألنى .. أجل أريد بلوغها فبم أتزود ؟

والجــواب :

١- تزود بتقوى الله .. فالله قال فى قرآنه الكريم " وتزودوا فان خيـر الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب لعلكم تفلحون .

٢- تمسـك بكتاب الله فهو حبـل الله المتين طرفه بيد الله وطرفه فـــى الأرض فأمسك به تفلح ، وإياك أن تفلت منك فأنت الخاسر وإياك . إياك ....

٣- الزم سنة رسـ صلى الله عليه وسلم فهو القائل " عليكم بسـنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ،عضوا عليهـــــا بالنواجذ .

٤- اقترب من الفكر الاسلامى فصوابه صواب ، وحقه حق ، وباطله باطـل اذ الحاكم عليه هو كونه من شرع الله مقتبس .

٥ـ العديد من المصادر ذكرتها لك بعضها مطوى فى بطن الكتاب وبعضها اعتصم بأواخر الصفحات .. فاعتبر هذه المصادر من الرموز التى ربما أعادت لك بعض الفكر الناشز ، أو أرجعت الى حناياك بعض الأمل السليب .

" ربنا لا تؤخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين "

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أهم المصادر

المؤلف	الكتاب
١- القرآن الكريم	
٢- صحيح البخاري	
٣- صحيح مسلم	
٤- فتح البارى	
٥- الامام محمد عبده	رسالة التوحيد
٦- انفرد اينشتين	الموسيقى فى العصر الرومانتيكى
٧- توبى أ. هاف	فجر العلم الحديث
٨- شاخت وبوزرت	تراث الاسلام
٩- د / محمود محمد زيادة	العرب وظهور الاسلام
١٠- د / محمود قاسم	نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الاكوينى
١١- د / توفيق الطويل	أسس الفلسفة
١٢- جاكوب برونوفسكى	التطور الحضارى للانسان — ارتقاء الانسان .
١٣- د / احمد حجازى السقا	لا نسخ فى القرآن
١٤- القس صموئيل مشرقى	الالهيات
١٥- توفيق الطويل	قصة الصراع بين الدين والفلسفة
١٦- د / عبد الصبور شاهين	قصة ابو زيد وانحسار العلمانية
١٧- كنيسة قصر الد وبارة	سيرة المسيح
١٨- جوستاف لوبون	حياة الحقائق

١٩ — د / محمد حسيني موسى الغزالي — خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثه
٢٠ — فليكس فارس — هكذا تكلم زرا شت
٢١ — ارثر لفنجوى — سلسلة الوجود الكبرى — محاضرات في تاريخ الفكر الفلسفي
٢٢ — كانت — مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة
٢٣ — كامنكا — الأسس الاخلاقية للماركسية
٢٤ — المستشار / أنور الجندى — الاسلام على مشارف القرن الخامس عشر .
٢٥ — الاستاذ / عبد الرحمن عزام — الرسالة الخالده
٢٦ — هربرت شنيدر — تاريخ الفلسفة الأمريكية
٢٧ — د / رفقى زاهر — عصر القلق
٢٨ — الامام ابو الحسن الندوى — ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين
٢٩ — جواهر لال نهرو — لمحات من تاريخ العالم
٣٠ — كير كجورد — وجهة نظر شارحه لمؤلفاتى
٣١ — د / عبد الفتاح الديدى — الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة
٣٢ — ونجيس جوليفية — المذاهب الوجودية من كير كجورد الى سارتر
٣٣ — د روبين أوسبون — الماركسية والتحليل النفسى
٣٤ — الاستاذ / توفيق محمد سبع — قيم حضارية في القرآن الكريم
٣٥ — " " " " " — قيم حضارية في القرآن الكريم عالـــم ما قبل القرآن
٣٦ — معجم الحضارة المصرية القديمة

٣٧ـ اسماعيل العربى	الاسلام والتيارات الحضارية فى شبه القارة الهندية
٣٨ـ	التآتى لشفاء الأمراض
٣٩ـ ابن رشد	الكليات فى الطب
٤٠ـ د / ناصر الأسد .	الاسلام والحوار الحضارى
٤١ـ	المعجم الوجيز
٤٢ـ د / محمد عمارة	الاسلام والعروبة
٤٣ـ د / محمد السيد الجليند	لغة الحوار بين الحضارة الاسلامية من وقائع المؤتمر الثامن المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .
٤٤ـ الاستاذ / محمد قطب	المذاهب الفكرية .
٤٥ـ الدكتور / عبد الغنى الراجحى	الارض والشمس فى منظور الفكر الاسلامى
٤٦ـ « / محمد أحمد الغمراوى	بين الدين والعلم
٤٧ـ « / هنرى لنك	العودة الى الايمان

فهرس الموضوعات

تابع الفهرس

مع أطيب التمنيات بالنجاح

محمد كمال للنسخ والطباعة بالزقازيق شرقية

دكتور / محمد الغزالى

((كتب صدرت للمؤلف))

(١) الايمان بالغيب وأثره على الفكر الاسلامى — مكتب شروق بالزقازيق ١٩٩٥م أولى ، والطبعة الثانية القاهرة ١٩٩٧م .

(٢) أوراق متناثرة فى التيارات المعاصرة — مطبعة غريب ١٩٩٥م نفدت الطبعة الأولى وجارى اصدار الطبعة الثانية .

(٣) رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق — مكتب شروق ١٩٩٥م ط أولى ط ٢ الهدى ١٩٩٦م

(٤) حبو الوليد فى علم التوحيد — مكتب شروق ١٩٩٥م ط أولى وجارى ط ٢ بمؤسسة شروق ١٩٩٧

(٥) غدوة المشتاق فى ربوع الأخلاق — مكتب غريب ١٩٩٦م أولى والثانية مؤسسة الشروق ١٩٩٧م .

(٦) وميض النصرانية بين غيوم المسيحية — مطبعة صنعاء بالأحدية ١٩٩٦م والثانية مؤسسة شروق ٩٧

(٧) حلف الفضول عند العرب وأثره فى العصر الحديث — مطبعة صنعاء بالأحدية ١٩٩٦م .

(٨) حفيف الأفنان فى الملل والنحل والأديان — مكتب الأصدقاء ١٩٩٦ أولى ، ط ٢ الهدى ٩٧

(٩) دوة المدد بتفسير سورة الحمد — مطبعة صنعاء بالأحدية ١٩٩٦م .

(١٠) خواطر حثيثة فى الفلسفة الحديثة — مطبعة صنعاء ١٩٩٦م بالأحدية طبعة أولى .

(١١) ديوان " التائه الغريب " عنى بالشعر العامودى الموزون المقفى طبعة أولى مكتب الأصدقاء ٩٦

(١٢) أنات حائرة — مؤسسة الشروق بالزقازيق ١٩٩٧م .

(١٣) لماذا انتشر الاسلام ؟ جـ ١ ط ٣ مؤسسة الشروق ١٩٩٧م بالزقازيق .

(١٤) قيمة الصراع بين الفلسفة الاسلامية وعلم الكلام جـ ١ ط ٣ مطبعة الشروق ١٩٩٧م .

(١٥) عبد الكريم الخطيب وآراؤه الكلامية — مؤسسة الشروق ١٩٩٧م .

(١٦) أوراق منسية فى النصوص الفلسفية — مؤسسة الشروق ١٩٩٧م . نفدت

(١٧) أوراق مطوية فى التصوف والصوفية — مؤسسة الشروق ١٩٩٧م .

(١٨) يوميات فى سنوات — مؤسسة الشروق ١٩٩٧م أولى .

(١٩) صدع البرهان فى جمهوريى السودان — مؤسسة الشروق ١٩٩٧م .

(٢٠) من وحى البيان فى جماعة الشيطان — مؤسسة الشروق ١٩٩٧م .

(٢١) قضايا حبيسة فى الفلسفة الحديثة ١٩٩٧م .